القول المبين
في
تفسير سورة يس

د. عبد المجيد البيانوني

دار نور المكتبات

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار نور المكتبات للنشر والتوزيع

جدة - حي السلامة - بجوار جامع الشعيبي - هاتف وفاكس: ٦٨٣٨٠٥١
ص.ب: ٤٠٣٧٤ - الرمز البريدي: ٢١٤٩٩
المملكة العربية السعودية

القول المبين
في
تفسير سورة يس

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

خطّة الدراسة

مقدمة

تمهيد : وفيه ثلاثة مباحث بين يدي السورة.

المبحث الأوّل: التعريف بسورة: «يس» وما ورد في فضائلها.

المبحث الثاني: السرّ في تسمية سورة: «يس» قلبَ القرآن الكريم.

المبحث الثالث: موضوع السورة العامّ وأفكارها الرئيسة.

الفصل الأوّل: مقدّمة السورة: حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان.

الفصل الثاني: مثل من حال الغابرين.

الفصل الثالث: من آيات القدرة والإبداع.

الفصل الرابع: حوار مع الكافرين والمصير المنتظر.

الفصل الخامس: دلائل نبوّة ومعالم رسالة.

الفصل السادس: حجج بيّنات في وجوه المكذّبين.

الخاتمة: الملك والقدرة أعظم دلائل التوحيد.

لطائف ونفحات من وحي سورة «يس».

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوجاً، وَجَعَلَهُ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان عَلى سيّدنا محمّد، من آتاه الله الكتاب والحكمة، وأرسله للعالمين رحمة، وعلى آله وأصحَابه والتابعين، سادة الدعاة الكمّل الهداة، والقادة الأئمّة الكماة، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنّته إلى يوم الدين، وبعدُ ؛

فقد طلب منّي فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بصفر، حفظه الله ورعاه، أن أجمَع تفسيراً لسورة «يس»، مختصراً ميَسّراً، يكون دراسيّاً مناسباً للمعاهد القرآنيَّة، التي تشرف عليها الهيئة العالميَّة لتحفيظ القرآن الكريم في بَعض البلاد الإسلاميّة، فاستجبت لذلك، واجتهدت في ترتيب دراسة هذه السورة المباركة بطريقة موضوعيّة تكشف عن وحدة فكرتها، وترابط موضوعاتها، ولم أرتض لنفسي أن أقتصر على النقل ممّن سبق، ولهم الفضل الأتمّ علينا فيما حملنا من

قلم، أو سوّدنا من ورق، ولكنّني حرَصت على أن أقدّم الجديد المفيد، مستهدياً بالمنهج الذي أراه أمثل لتفسير القرآن، وتقريب مفاهيمه، وحسن عرضه لأبناء هذا العصر.

فاللهمَّ لك الحمد على ما وفَّقتَ وأعنتَ، استزادةً لفضلك، واستدراراً لرضاك، وقياماً بحقّ شكرك، حمداً يليق بجلال وجهِك وعظيم سلطانك، فلك الحمد في الأولى والآخرة.

فتقبل اللهمّ منّي صالح ما أعطيتني، واجعله خالصاً لوجهك العظيم، وتجاوز عن خطأي وزللي إنّك سميع الدعاء، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد، النبيّ الأمّيّ الطاهر الزكيّ، وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله ربّ العالمين.

جدّة في ١٠/٤/١٤٢٢ هـ
وكتبه راجي عفو ربّه
عبد المجيد البيانوني

تمهيد : وفيه ثلاثة مباحث بين يدي السورة

المبحث الأوّل

التعريف بسورة : «يس» وما ورد في فضائلها

سورة: «يس» من السور المكّيّة بالإجماع، لم يخرج عن ذلك إلاّ ما قيل من استثناء قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ من أنّها نزلت في بني سَلِمة من الأنصار، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم، وينتقلوا إلى جوار المسجد النبويّ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**بني سَلِمة ! دياركم تُكتَب آثارُكم، دياركم تُكتَب آثارُكم**»، وكره عليه الصلاة والسلام أن يُعروا المدينة، فعلى هذا فهذه الآية مدنيّة، وليس الأمر كذلك، وإنّما نزلت الآية بمكّة، ولكنّه احتجّ عليهم بها في المدينة [1].

وآيات هذه السورة ثلاث وثمانون آية.

---

(١) ـ انظر تفسير ابن عطيّة ٢٦٨/١٢.

وقد ورد في فضائل سورة يس آثار عديدة منها :

١ ـ ما رُوي عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس، وَمَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ**» (١).

٢ ـ وما روي عَنْ عَلِيٍّ ﷺ أنه قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى عَلِيٌّ ﷺ لِلنَّاسِ، فَقَرَأَ يس أَوْ نَحْوَهَا، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِنْ قَدْرِ السُّورَةِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ قَدْرَ السُّورَةِ يَدْعُو وَيُكَبِّرُ، ثُمَّ رَكَعَ قَدْرَ قِرَاءَتِه أَيْضًا، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ قَامَ أَيْضًا قَدْرَ السُّورَةِ، ثُمَّ رَكَعَ قَدْرَ ذَلِكَ أَيْضًا، حَتَّى صَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ، فَفَعَلَ كَفِعْلِه فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى، ثُمَّ جَلَسَ يَدْعُو وَيَرْغَبُ، حَتَّى انْكَشَفَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَذَلِكَ فَعَلَ"(٢).

٣ ـ وروى الإمام أحمد في المسند قال: حَدَّثَنَا أَبُو الْمُغِيرَةِ حَدَّثَنَا صَفْوَانُ، حَدَّثَنِي الْمَشْيَخَةُ أَنَّهُمْ حَضَرُوا غُضَيْفَ بْنَ الْحَارِثِ

---

(١) ـ رواه الترمذي /٢٨١٢/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلا مِنْ حَدِيثِ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَبِالْبَصْرَةِ لا يَعْرِفُونَ مِنْ حَدِيثِ قَتَادَةَ إِلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَهَارُونُ أَبُو مُحَمَّدٍ شَيْخٌ مَجْهُولٌ.. وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَلا يَصِحُّ مِنْ قِبَلِ إِسْنَادِهِ وَإِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ وَفِي الْبَاب عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٢) ـ رواه أحمد في المسند /١١٥٣/.

الثُّمَالِيَّ حِينَ اشْتَدَّ سَوْقُهُ فَقَالَ: هَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَقْرَأُ يس؟ قَالَ: فَقَرَأَهَا صَالِحُ بْنُ شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ مِنْهَا قُبِضَ، قَالَ: فَكَانَ الْمَشْيَخَةُ يَقُولُونَ: إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خُفِّفَ عَنْهُ بِهَا، قَالَ صَفْوَانُ: وَقَرَأَهَا عِيسَى بْنُ الْمُعْتَمِرِ عِنْدَ ابْنِ مَعْبَدٍ "(١).

٤ ـ وما روي عَنِ الْحَسَنِ رحمه الله قَالَ: "مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، أَوْ مَرْضَاةِ اللهِ غُفِرَ لَهُ، وَقَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهَا تَعْدِلُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ"(٢).

٥ ـ وما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غُفِرَ لَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ» (٣).

٦ ـ وقَالَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ رحمه الله بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ يس فِي صَدْرِ النَّهَارِ قُضِيَتْ حَوَائِجُهُ»(٤).

٧ ـ وَعَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَنْ قَرَأَ يس حِينَ يُصْبِحُ أُعْطِيَ يُسْرَ يَوْمِهِ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَرَأَهَا فِي صَدْرِ لَيْلِهِ أُعْطِيَ يُسْرَ لَيْلَتِهِ حَتَّى يُصْبِحَ»(٥).

---

(١) ـ رواه أحمد في المسند /١٦٣٥٥/، اشتدَّ سَوْقُه: أي اشتدَّت عليه سكرات الموت.

(٢) ـ رواه الدارميّ في فضائل القرآن /٣٢٨١/.

(٣) ـ رواه الدارميّ في فضائل القرآن /٣٢٨٣/.

(٤) ـ رواه الدارميّ في فضائل القرآن /٣٢٨٤/.

(٥) ـ رواه الدارميّ في فضائل القرآن /٣٢٨٥/.

ونقف عند هذه الآثار وما تشير إليه من معانٍ وقفات :

ـ **الوقفة الأولى**: أكثر هذه الآثار ضعيفة، ولكنّ جمهور العلماء من الفقهاء والمحدّثين على جواز الأخذ بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، إذا لم يشتدّ ضعفه، وكان يندرج تحت أصل عامّ، وهذه الأحاديث لا تخرج عن ذلك.

ـ **الوقفة الثانية**: أنّ سرّ ما ذكرته الأحاديث والآثار من كون سورة: «يس» قَلْب الْقُرْآنِ سنتحدّث عنه في المبحث الثاني بإذن الله.

ـ **الوقفة الثالثة**: وأمّا ما ذكر في تلاوتها من الفضل والثواب العظيم، فهذا أمر توقيفيّ لا يُعرف إلاّ من قبل الوحي، وهو يُؤكّد الأمرَ الأوّل ويعضده، ولا نستكثر ذلك ولا نستغربه على فضل الله تعالى وكرمه، والله يهب الفضل على تلاوة كتابه المجيد كيف يشاء.

ـ **الوقفة الرابعة**: وأمّا سرّ قضائها للحوائج، وتيسير الأمور فلعلّ ذلك لما تشتمل عليه من أصول إيمانيّة عقديّة، وبراهينَ ربّانيّة باهرة، والتناسب بين أصول العقيدة الراسخة، وقضاء الحوائج وتَيسير الأمور ظاهر بيّن، كما أنّ ختامها بقول الله تعالى: ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ متناسب غاية التناسب بين معناها وما يطلبه الإنسان من قضاء الحوائج، وتيسير الأمور.

ومَا شاع على ألسنة العامّة منْ حديث: «**سورة يس لما قرأت له**» قال في «كشف الخفاء» نقلاً عن «المقاصد الحسنة»: لا أصل له [١]، ولكنّ معناه صحيح كما تشير إلى ذلك الآثار السابقة.

ـ **الوقفة الخامسة**: أنّ ما جاء في الفرح لتاليها في الليل والنهار، وأنّ هذا الأمر مجرّب فلعلّ سرّ ذلك ما جاء في هذه السورة المباركة من وصف تكريم الله تعالى لأهل الجنّة ونعيمهم في جواره العظيم: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾، وما ينالونه من تحيّة الحقّ جلّ وعلا وتكريمه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

فأيّ سرور يدخل على المؤمن أعظم من هذا السرور والابتهاج.؟! وأيّ أكدار وأحزان تلقيها هذه الآيات عن كاهل المؤمن عندما يتلوها، فتجعله يعيش مبتهج النفس، وفي رياض الأنس.! نسأل الله تعالى أن يكرمنا بذلك بمنّه وكرمه.

* * * * *

(١) ـ انظر: كشف الخفاء ٢/٥٢٦.

المبحث الثاني

السرّ في تسمية سورة : «يس» قلب القرآن الكريم

مرّ بنا في الآثار الآنفة الذكر: «**لكلّ شيء قلب، وقلب القرآن يَس**» . . **فما السرّ في اعتبار سورة يَس قلب القرآن ؟**

لقد فسّر ذلك الإمام الغزالي رحمه الله فقال: " إنّ ذلك لأنّ صحّة الإيمان بالاعتراف بالحشر، والحشر مقرّر في هذه السورة بأبلغ وجه وأحسنه، ولذا شبّهت بالقلب الذي به صحّة البدن وقوامه.. والمراد بالصحّة ما يقابل السقم والمرض، ولاشكّ أنّ من صحّ إيمانه بالحشر يخاف من النار، ويرغب في الجنّة دار الأبرار، فيرتدع عن المعاصي، التي هي كأسقام الإيمان، إذ بها يختلّ ويضعف، ويشتغل بالطاعات، التي هي كحفظ الصحّة، ومن لم يقو إيمانُه بالحشر كان حاله على العكس، فشابه الاعترافُ به القلبَ الذي بصلاحه يصلح البدن، وبفساده يفسد، كما أنّ القلب به صلاح البدن وفساده، وهو غير مشاهد في الحسّ، وهو محلّ لانكشاف الحقائق والأمور الخفيّة، وكذا الحشر من المغيّبات، وفيه يكون انكشاف الأمور، والوقوف على حقائق المقدور، وبملاحظة القلب وإصلاح أسبابه تكون السعادة

الأبديّة، وبالإعراض عنه وإفساد أسبابه يبتلى بالشقاوة السرمديّة "[١].

ويقول الإمام الآلوسي: " وقلب كلّ شيء لبّه وأصله، وما سواه إمّا من مقدّماته، وإمّا من متمّماته، كما سمّيت سورة الفاتحة: " أمّ الكتاب " لما أنّ المقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غاية الكمال في المعاد، ولا يكون إلاّ بسلوك الصراط المستقيم، ومدار سورة الفاتحة على بيان ذلك أتّم بيان، والدعوة إلى التحقّق به وسلوك سَبيله[٢].

ويقول الإمام فخر الدين الرازي: " ويمكن أن يقال بأنّ هذه السورة ليس فيها إلاّ تقرير الأصول الثلاثة بأقوى البراهين، فابتداؤها بيان الرسالة بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ ودليلها ما قدّمه عليها بقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ وما أخّره عنها بقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وانتهاؤها بيان الوحدانيّة والحشر بقوله: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ إشارة إلى التوحيد، وقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ إشارة إلى الحشر، وليس في هذه السورة إلاّ هذه الأصول الثلاثة ودلائلها وثوابها، **ومن حصّل من القرآن هذا القدر فقد حصّل نصيب قلبه، وهو التصديق الذي بالجنان. . فلمّا لم يكن فيها إلاّ أعمال القلب لا غير سمّاها قلباً**، ولهذا ورد في الأخبار أنّ النبيّ ﷺ ندب إلى تلقين: «يس» لمن دنا منه الموت، وقراءتها عند رأسه، لأنّ في ذلك الوقت

---

(١) ـ انظر تفسير الآلوسي ٢٠٩/٨.

(٢) ـ انظر تفسير الآلوسي ٢٠٩/٨.

يكون اللسان ضعيف القوّة، والأعضاء الظاهرة ساقطة البنية، لكنّ القلب يكون قد أقبل على الله، ورجع عن كلّ ما سواه، فيقرأ عند رأسه ما يزاد به قوّة قلبه، ويشتدّ تصديقه بالأصول الثلاثة، وهي شفاء له، وأسرار كلام الله تعالى، وكلام رسول الله ﷺ لا يعلمها إلاّ الله ورسوله ﷺ، وما ذكرناه ظنّ لا نقطع به، ونرجو الله أن يرحمنا وهو أرحم الراحمين "[1].

* * * * *

(١) ـ ينظر: تفسير الفخر الرازي ٢٦/١١٣.

المبحث الثالث

طبيعة السورة وموضوعها العامّ وأفكارها الرئيسة

يغلب على سورة «يس» إظهار عزّة الحقّ جلّ وعلا وهيمنته وجبروته، لأنّها تتوجّه إلى الكافرين المعاندين لتقرير حقائق الدين الكبرى: الإيمان بنبوّة محمّد ﷺ ورسالته، وأنّ القرآن هو من عند الله، وتقرير البعث والجزاء، والتحذير من عاقبة الكفر والطغيان، وما جاء فيها من وصف نعيم المؤمنين في الجنّة إنّما جاء عرضاً، لضرورة قرن الترهيب بالترغيب، الذي هو منهج قرآنيّ يكاد يكون مطّرداً، لتزداد صورة الهول والعذاب على الكافرين، عندما يسمعون ما ينال المؤمنين من التكريم، ولعلّ ذلك ممّا يثير مشاعر المنافسة لديهم لنيل ما نال المؤمنون المكرمون.

وفي سورة «يس» رفع لقدر النبيّ المصطفى ﷺ، وتخفيف من شدّة معاناته من تكذيب المشركين، وإنكارِهم للبعث بعْد الموت، وعنادهم للحقّ.. فهم في واقع الأمْر وحقيقته لا يكذّبونَه، ولكنّهمْ يَستهينون بالله جلّ وعلا، ويعرّضون أنفسهم لغضبه وعقابه، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام]. ولذا فقد تكرّر في السورة تنزيهُ الله تعالى، صراحةً في وسطها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وفي

آخرها: ﴿فَسُبْحَانَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وضمناً في مناسبات عديْدة..

ثمّ إنّ في كلّ سُورة مِن القُرآن موضُوعاً عامّاً ومقَاصد رئيسة، ثمّ تأتي موضُوعات متفرّعة تتخلَّل مسيرة الموضوع العامّ والمقَاصد الرئيسة، وتنتقلُ خلالَها، حتّى يبلغَ الموضوعُ الخاتمَةَ التي تَتوثّق بالمُقدّمة وتمهّد للاختتام بهَا.

وقبل الحديث عن موْضوع هذا المبحث نشير إلى ملاحظة مهمّة: لقد تناولت سورة «يس» موضوعها بأسلوب القسم بالْقُرْآنِ الذي هو أحد الأصول الإيمانيّة الثلاثة التي تتحدّث عنها السورة، وكان هذا القسم على الأصل الثاني وهو الإيمان بالنبيّ ﷺ، وهو نوع من القسم والمقسم به فريد في القرآن العظيم.

ووَصَفَ الله القرآن بالحكيم، وهو وصف معجزٌ دقيق غاية الدقّة، إذ إنّه يقدّم مع الدليل دليله، ومع البرهان حجّته وبرهانه.. إذ الحكمة صفة العاقل، والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة، وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً، ومع أنّ هذا مجاز إلاّ أنّه يُصوّر حقيقة هذا القرآن ويقرّبها..

إنّ القرآن حكيمٌ يخاطب كلّ أحد بما يدخل في طوقه، ويضرب على الوتر الحسّاس في قلبه، ويخاطبه بقدر، وبالحكمة التي تصلحه وتوجّهه.. والقرآن حكيم يربّي بحكمة، وَفْق منهج عقليّ ونفسيّ مستقيم، منهج يطلق طاقات البشر كلّها مع توجيهها الوجه الصالح القويم، ويقرّر للحياة نظاماً، يسمح بكلّ نشاط بشريّ في حدود ذلك

المنهج الحكيم وضوابطه.

ويتبيّن لنا ممّا سلف أنّ موضوع السورة العامّ هو: "**إثبات الرسالة ودليلِها، وتقديمُ براهين البعث بعد الموت وبعض بيّناته**"، وهي الأصول الثلاثة من أصول الإيمان وأركانه التي تتحدّث عنها السورة.

فكيف تناولت هذه السورة موضوعها ؟ وكيف دلّلت عليه ؟

نستطيع أن نستشفّ ذلك بصورة إجماليّة موجزة من خلال استعراض ما اخترنا من عناوين للفصول التي قسّمنا السورة إليها.

ففي الفصل الأوّل : الذي هو مقدّمة السورة يُقَرّرُ الله جلّ وعلا مصْدريّة القرآن الكريم أنّه من عند الله تعالى بأسلوب القسم به على صدق النبيّ ﷺ فيما جاء به عن ربّه، ثمّ يجعلُ هاتين الحقيقتين من حقائق الإيمان في مواجهة الطغيان وعتوّه وعناده الذي يجعله يأبى الحقّ مهما قامت حججه واتّضحت براهينه..

ويبدأ الفصل الأوّل وهو مقدّمة السورة من أوّل السورة إلى نهاية الآية الحادية عشرة: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

ويشْبه أن تكونَ الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ..﴾ ختَاماً لمقدّمةِ السورة، كما يمكن أنْ تكونَ مقدّمةً للفصل الثاني، وهذا ما رجَّحته باعْتبار هذا الافتتَاح المؤكَّد بتَأكيدينِ: "**إنَّا ونحنُ**"، والذي يعدّ بمثابة التمهيد للحديْث عَن قصَّة أصحاب القرية، وما تضمّنتهُ منْ تكذيبهم بدعوة الرسُل وإنكارهم للبعث.

ـ **ثمّ تتناول السورة في الفصل الثاني** : مثلاً من حال الغابرين،

وموقفهم من رسلهم، وكيف كانت عاقبتهم، التي ينبغي على أهل مكّة بخاصّة أن يعتبروا بها، ويحذروا أن يصيبهم مأ أصاب أولئك الأوّلين، وهم يقفون مواقفهم نفسها من التكذيب والمعاندة.

ويبدأ الفصل الثاني من قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ..﴾. إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ـ **وينتقل الحديث في الفصل الثالث**: إلى تقديم طرف من آيات القدرة والإبداع، التي تتراءى في كلّ زاوية من زوايا الكون وصفحاته، وهي تدلّ أوّل ما تدلّ على أنّ قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء، وأنّ أوّل ما تتجلّى فيه قدرة الله تعالى: البعث بعد الموت، وهو ما تقتضيه حكمته تعالى ورحمته بعباده، ويدلّ عليه جلال صفاته، وعزّة ذاته سبحانه..

ويبدأ الفصل الثالث من قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

ـ **ومع وضوح هذه الأدلّة والبراهين على البعث والحشر**: فإنّ الكافرين في كلّ عصر وجيل يعاندون الحقّ ويكابرون، فتأتي الآيات في الفصل الرابع بحوار معهم يقطع دابر شبهاتهم، ويعرّي أقاويلهم، فتتبدّى سوآتهم: أنّهم لا يقفون مواقفهم إلاّ عناداً للحقّ، وكبراً عن قبوله، وانسياقاً وراء عبادة الشيطان وغوايته.. وهنا تهدّدهم الآيات بالمصير المنتظر يوم البعث والجزاء، بعد أن تقدّم لهم صورة وضيئة من تكريم المؤمنين ورفعة شأنهم.

ويبدأ الفصل الرابع من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ـ **وتستعرض الآيات في الفصل الخامس**: دلائلَ بيّنةً جليّةً، من دلائل نبوّة محمّد ﷺ ومعالم رسالته، وهي ممّا يعرفه هؤلاء المشركون المعاصرون لرسول الله ﷺ، ويشهدون به، ممّا لا يدع لهم أيّة شبهة تحول بينهم وبين الإيمان بنبوّته، والاستجابة لدعوته..

ويبدأ الفصل الخامس من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿..إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

ـ **وفي الفصل السادس**: تقدّم الآيات حججاً وبيّناتٍ أخرى على البعث والنشور، تصدع بها في وجوه المكذّبين المعاندين، ممّا يأتي على شبهاتهم من قواعدها، ويفنّد حججهم ويهدمها.

ويبدأ الفصل السادس من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿..بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

ـ **وتأتي خاتمة السورة**، وهما الآيتان: «٨٢» و «٨٣» لتقرّر فيهما: أنّ الحقائق الإيمانيّة التي جاءت هذه السورة لإثباتها إنّما تعود إلى صفتي: **الملك والقدرة** لله جلّ جلاله.. وهما أعظم دلائل التوحيد وبراهينه.. الملك لكلّ شيء في هذا الوجود، والقدرة على كلّ شيء في هذا الوجود، فأيّ عجب بعد ذلك فيما أنزل سبحانه من كتب، أو فيما قضت حكمته أن يرسل من رسل، أو يقدّر من بعث ونشور.؟!

وهكذا نلاحظ انتظام موضوع السورة العامّ خلال آيات السورة كلّها، وتَدرّج موضوعاته الرئِيسة، بصورة تحقّق الوحدة الموضوعيَّة لِلسورة بأدقّ معَانيها.

* * * * *

الفصل الأوّل

مقدّمة السورة

حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

بين يدي الآيات :

الإيمان بالرسول ﷺ، والكتاب الذي أنزل عليه أنّه من عند الله تعالى يعدُّ مفترق الطريق بين المؤمنين الموحّدين، والمكذّبين المعاندين.. وما لم يحكم هذا الأمرُ ويُوثّق، فلا جدوى من أيّ حوار أو جدال مع الكافرين أو المنافقين، حول جزئيّات يبتدئ الحديث

عنها ولا يكاد ينتهي..

ومن هنا فقد قام منهج القرآن الكريم في دعوته على إثبات الأصول أوّلاً وإحكامها، وتقديم الأدلّة عليها وتنويعها، ثمّ بعد ذلك لا يجد أحد أيّ عناء أو صعوبة في تقديم الحجّة على أيّة حقيقة دينيّة، وربطها بأصولها وتوثيقها..

ولقد كان من منهج القرآن الكريم في التعريف بالحقّ ونصرة الدعوة: الكشف عن دخائل نفوس المخالفين المعاندين وأسرارها، والتعريف بتوجّهاتهم ودوافعهم، لأنّ الإنسان مالم يعرف عدوّه على حقيقته، وما لم يكن على بصيرة بخلفيّات دوافعه، فسوف يفاجأ في التعامل معه بأمور كثيرة، ولن يستطيع إدارة الصراع معه بنجاح واقتدار..

وهذا ما نجد بيانه في الآيات التي بين أيدينا..

ـ أسباب نزول الآيات :

أ ـ ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾.

ـ أخرج أبو نُعيم في «الدلائل» عن ابن عباس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى يتأذى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عمي لا يبصرون، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله

والرحم يا محمد، فدعا حتّى ذهب ذلك عنهم. فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

وأخرج ابن جرير الطبري عن عكرمة في سَبب نزول قوْله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو، أين هو ؟ لا يبصر.

معاني الكلمات :

يَسٓ : حرفان من الحروف الهجَائيّة المقطّعة، التي استفتح الله تعالى بها أوّل بعض السور، هذا هو أشهر ما قاله جمهور المفسّرين في معناها[1]، والمراد منها تنبيه العرب والإشارة إليهم على وجه

---

(١) ـ وقيل: (يس) اسم من أسماء الله تعالى، وقيل: اسم من أسماء النبيّ ﷺ، وشاع ذلك لدى العامّة حتّى سمّى كثير منهم ابنه بهذه التسمية، وقيل: هو نداء معناه يا إنسان، وروي ذلك عن ابن عبّاس، أو هو اختزال يا سيّد، وبيان ذلك أنّ تصغير إنسان أنيسين فكأنّه حذف الصدر منه وأخذ العجز وقال: (يس) أي: أنيسين، وعلى هذا يحتمل أن يكون الخطاب مع النبيّ ﷺ، ويدلّ عليه قوله تعالى بعده: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول الإمام الآلوسيّ: "ولتسميته ﷺ بهذين الحرفين الجليلين سرّ جليل عند الواقفين على أسرار الحروف، وقد تكلّمت ولله تعالى الحمد فيما يتعلّق بهذه

الكلمة الشريفة ثلاثة أيّام، أشرع كلّ يوم منها بعد العصر، وأختم قبيل المغرب، وذلك في مجلس وعظيّ في المسجد الجامع الداودي، واليوم لا أستطيع أن أذكر من ذلك بنت شفة، بل لا أتذكّر منه إلاّ رسماً، هبَّ عليه عاصف الزمان الغشوم فنسفه، فحسبي الله عمّن سواه، فلا ربَّ غيره، ولا يُرجى إلاّ خيره "، فسبحان السميع العليم، الذي لا يحيط بكتابه أحد، ولا تقف أسراره عند حدّ، ولا يحيط بها عقل بشر، انظر: تفسير الرازي، والآلوسي، والتحرير والتنوير للشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور، هذا وقد فتح الله تعالى عليّ بمعنى لا أرى ما يمنع من ذكره استئناساً ببركة كتابه المبين، وإدلاءً بدلوي الصغير الضعيف مع الناهلين الواردين، وهو أنّ حرف " س " في علم الرياضيّات رمزٌ رياضيّ للمجهول، الذي يمكن أن يفسّر بكلّ شيء، كما يمكن أن يفسّر به كلّ شيء، ويمكن أن يبرهن به على كلّ شيء، ويُمكن أن يرمز به لكلّ قيمة، ويمكن به استخرَاج المجهول من المعلوم، واكتشاف الخفيّ من الجليّ.. أفليس من الممكن أن ترمز بداية السورة إلى نداء: (س) ذلك الرمز الرياضيّ، الذي يمكن أن يعبّر عن أيّة قيمة، أو كمّيّة، كما يمكن أن يرمز للأشياء حتّى ما كان منها خياليّاً.. وكأنّها ترمز إلى النبيّ ﷺ فتقول: يا أيّها المجهول عند كثير من الناس، وأنت الرمز لكلّ معلوم، وبك يُكتشفُ كلّ مجهول، وبك تعرف قيمة كلّ معلوم وقدره.. ويُستأنس لهذا الفهم بما جاء بعد ذلك من قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾، أو كأنّ هذه البداية ترمز إلى كلّ مجهول لدى المشركين والكافرين المعاندين، أنّه حقيقة لها برهانها، وإنْ هم جهلوها أو تجاهلوها، أو أنكروها، فهذا لا يغيّر من واقع الأمر شيء، ولاحظ أنّ سورة «يس» جاءت بعدها سورة (ص)، وهي رمز رياضيّ أيضاً، ويعبّر عن مثل ما يعبّر عنه الرمز: "س"، هذا والله تعالى أعلم، وأستغفره سبحانه

الخصوص حين تحدّاهم بالقرآن أنّه مؤتلف من حروف معروفة لديهم، تتركّب منها لغتهم وكلامهم، ممّا يجعل عجزهم عنه أبلغ حجّة عليهم.

وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ: الواو للقسم، يقسم الله تعالى بالقرآن المحكم بعجيب النظم، وبديع المعاني، أو بذي الحكمة على أنّ محمّداً ﷺ رسول من عند الله تعالى.

والقرآنُ عَلَمٌ بالغَلَبة على الكتاب الموحى به إلى محمّد ﷺ من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع والهداية.

إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ: أي من الأنبياء المرسلين من عند الله بالحقّ والهدى.

عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ: على طريق قويم لا التواء فيه ولا اعوجَاج.

والصِّراطُ المستقيم: هو الهدى الموصل إلى الفوز في الآخرة، وهو الدين الذي بعث به النبيّ ﷺ، والخُلُق الذي كان عليه، شُبّه بطريق مستقيم لا اعوجاج فيه، لأنّه موثوق به في الإيصال إلى المقصود دون أن يتردّد السائر فيه.

تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ: أي إنّ القرآن الكريم تنزيل منزّل من الله العزيز الغالب في ملكه، الرحيم بعباده.

مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ، فَهُمْ غَافِلُونَ: لم ينذر آباؤهم الأقربون، فهم

ممّا طغى به القلم أو زلّ.

أهل فترة، غافلون عن الإيمان والرشد، جَاهلون بالشريعة والأحكام.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ: وجب الحكم بالعذاب على أكثر أهل مكّة، وهم الذين عاندوا الحقّ، وأصرّوا على الكفر، وماتوا عليه، وهذا إخبار منه سُبحانه بمآل أمورهم، وخواتيم أحوالهم.

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالا: الأَغلال جَمع غُلّ: وهو ما تجمع به اليد إلى العنق للتعذيب، أو ما يوضع في العنق.

فَهِيَ الأيدي مجموعة **إِلَى الأَذْقَانِ**: جمع ذَقَن، وهو مجتمع اللحيين.

فَهُمْ مُقْمَحُونَ: رافعون رءوسهم، لا يستطيعون خفضها، غاضّون أبصارهم لأنّهم لم يذعنوا للإيمان، ولم تستجب نفوسهم له.

وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا: من أمامهم، ومن خلفهم.. والمراد منعناهم عن الإيمان بموانع من استكبارهم عن قبول الحقّ، وعتوّهم وعنادهم.

فَأَغْشَيْنَاهُمْ: غطّينا أبصارهم.

أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ، لا يُؤْمِنُونَ: إنذارك إيّاهم وعدمه سواء، فلا ينفعهم الإنذار بسبب العتوّ والاستكبار.

مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ: أي اتّبع القرآن.

وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ: أي خاف عقاب الله في السرّ والعلن، وإن لم يره.

المعنى الإجمالي للآيات :

يقسم الله تعالى بالقرآن المحكم بما فيه من الأحكام والحكم والحجج، إنَّك ـ يا محمد ـ ﷺ لمن المرسلين بوحي الله إلى عباده، على طريق مستقيم معتدل، وهو الإسلام، وهذا القرآن تنزيل من العزيز في انتقامه من أهل الكفر والمعاصي، الرحيم بمن تاب من عباده وعمل صالحاً.

لقد أنزلنا عليك هذا القرآن ـ يا محمد ـ لتحذّر به قومك وهم العرب، الذين لم ينذر آباؤهم الأقربون، فهؤلاء القوم ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح، وإنّ كل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة، وفي هذا دليل وجوب الدعوة والتذكير على العلماء بالله وشرعه، لإيقاظ المسلمين من غفلتهم.

وإنّ أكثر هؤلاء الكافرين قد وجب عليهم العذاب لإعراضهم عن الحقّ، فهم لا يصدِّقون بالله تعالى ولا برسوله ﷺ، ولا يعملون بشرع الله وهديه.

وإنّ مثل هؤلاء الكفار الذين عُرض عليهم الحق فردُّوه، وأصرُّوا على الكفر وعدم الإيمان، كمن جعل في أعناقهم أغلال، فجمعت أيديهم مع أعناقهم تحت أذقانهم، فاضطروا إلى رفع رءوسهم إلى السماء فهم مغلولون عن كل خير، لا يبصرون الحق ولا يهتدون إليه.

وجعلنا من أمام الكفار سداً ومن ورائهم سداً، فهم بمنزلة من سدّ طريقه من بين يديه ومن خلفه، فأعمينا أبصارهم ؛ بسبب كفرهم

واستكبارهم، فهم لا يبصرون رشداً ولا يهتدون، وكلّ من قابل دعوة الإسلام بالإعراض والعناد، فهو حقيقٌ بهذا العقاب.

وإنّ كثيراً من هؤلاء الكفار المعاندين يستوي تحذيرك لهم وعدم تحذيرك، فهم لا يصدقون بالحقّ، ولا يعملون بمقتضاه.

ولكنّ تحذيرك ينفع من آمن بالقرآن، واتّبع ما فيه من أحكام الله تعالى، ووعده ووعيده، وخاف الرحمن، دون أن يراه، وحيث لا يراه أحد إلا الله، فبشِّر هذا وأمثاله بمغفرة من الله لذنوبه، وثواب منه عظيم في الآخرة على أعماله الصالحة.

الدروس والعبر :

١ ـ القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة، وهو تنزيلٌ من ربّ العالمين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

٢ ـ إنّ محمد بن عبد الله ﷺ رسول من عند الله تعالى، أرسله الله بالهدى ودين الحق، للعالمين بشيراً ونذيراً، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

٣ ـ لقد أرسل الله تعالى النَّبي ﷺ بدعوة الحقّ ودين الإسلام إلى الإنس والجنّ كافّة، فلا عذر بعد بلوغ دعوته لمعتذر، ولا يقبل منهم غير دين الإسلام.

٤ ـ إن رءوس الكفر والطغيان، والتكذيب والعناد من أهل مكّة أو العرب، أو ممّن يأتي بعدهم إنما يستحقّون الخلود في نار جهنّم،

لأنّهم أصرّوا على الكفر، وأصمّوا آذانهم، وأعموا أبصارهم عن النظر في آيات الله، والتفكّر في دلائل وحدانيّته وقدرته.

٥ ـ وما جاء من الآيات بعد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝﴾ إنّما هو كالتعليل والتدليل على عدم إيمان هؤلاء الكافرين، فكأنّ سائلاً سأل: لماذا حُرموا من نعمة الإيمان ؟ وحَقّ عليهم العذاب ؟ فكان الجواب لأنّهم حَجَبوا عن أنفسهم بأنفسهم دلائل الحقّ، فكان حالهم كحال السجين المغلول اليدين والرأس، وقد اجتمع عليه مع ذلك الحبس في مكان ضيّق بين سدّين وجدارين: سدّ أمامه، وسدّ خلفه، فأنّى له المخرج من ذلك[1]؟.

٦ ـ لا أمل في إنذار الكفّار والمعاندين إذا سدّوا على أنفسهم منافذ الهداية ومدارك المعرفة، ولم تتفتّح بصائرهم لرؤية الحقّ والنور الإلهيّ.

٧ ـ وإنما ينفع الإنذار من آمن بالقرآن الكريم كتاباً منزّلاً من عند الله، واتّبع ما فيه من الحقّ، وخشي عذاب الله وسخطه، فله البشارة

---

(١) ـ يقول الإمام الرازيّ: " مانع الإيمان إمّا أن يكُون في النفس، وإمّا أن يكُون خَارجاً عنها، وهؤلاء الكافرون لهم المانعان جميعاً: أمّا في النفس فالغلّ، وأمّا من الخارج فالسدّ، فلا يقعُ نظرهم على أنفسهم فيروا الآيات التي في أنفسهم، لأنّ المقمحَ لا يرى نفسه، ولا يقع نظرهم على الآفاق، لأنّ من بينَ السدّين لا يبصرون الآفاق، فلا تَتبيّن لهم الآيات كما قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصّلت].

من الله تعالى بمغفرة ذنوبه، ودخول الجنة دار النعيم والتكريم.

اتّصال الآيات بما بعدها :

كانَ الفصْل الأوّل مقدّمةً للسورةِ جمعت الحقَائق التي تحدّثت عنها السورة بإيجَاز، يتناسب مع طبيعة مقدّمة السور القرآنيّة، التي تبلغ من الإعجَاز القرآنيّ ذراه وغايته.. فما فيها من إيجاز عميق دقيق، يهيّئ النفوس ويشوّقها لاستقبال التفصيل، وما يأتي بعدُ يقوم مقام التفسير والتدليل، قبل أن تطلب العقول الدلْيل، فلا عجب أنْ تكُون العقول والأرواح والنفوس مشدودة للسورة عندما تسمع مقدّمتها، ومشحونة بفكرتها بعدما تُطالع بدايتها، ومحلِّقة مع الحقّ الذي تَعرضه، وكأنّه مجبُولٌ بطينتها، ومن بعض معتقدها.

وهذا ما نراه منْ صلةٍ وثيقةٍ بين الفَصل الأوّل من السورة، ثمّ ما يأتي بعد ذلك من موضوعات السُّورة، وكذلك بينها وبين مَا جاء بعدها بخَاصّة من الحديث عن أصحاب القرية وما كان من خبرهم وعاقبتهمْ، وكأنّ تلك الآيات وما فيها منْ مثل وعاقبَة تلَوّح بالتهديْد لمن أعرض عنْ الانتفاع بهدي القرآن، وعاند الحقّ، وأصمّ عقله وأعماه.

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: **يَسٓ ـ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ـ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ـ إِنَّكَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ـ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا، وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ـ فَأَغْشَيْنَاهُمْ.**

السؤال الثاني : ما سبب نزول قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾.

السؤال الثالث : وضّح المعنى الإجماليّ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

السؤال الرابع : اذكر ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

* * * * *

الفصل الثاني

مثل من حال الغابرين

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَ‌ٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا

قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾.

بين يدي الآيات :

تتشابه مواقف الكافرين والمكذّبين في كلّ زمان ومكان، ويأبى اللاحقون على طريق العناد والتكذيب أن يعتبروا ويتّعظوا بمن سبقهم، وما حلّ بهم من عقوبة ونكال، وما آل إليه أمرهم من مصير..

ويقيم الله تعالى الحجّة تلو الحجّة على المشركين بما يقصّ عليهم من قصص الأوّلين، وما حلّ بهم من عذاب في الدنيا قبل الآخرة، وليس هؤلاء المشركون من أهل مكّة بخارجين عن سنّة الله في خلقه، فإنّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً.. ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ هود.

أسباب نزول الآيات :

ـ ما جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ . .﴾[1]:

أخرج الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد

---

(١) ـ انظر ما سبق بيانه في المبحث الأول من مقدّمات تفسير هذه السورة.

الخدري ﷺ قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ . .﴾ فقال رسول الله ﷺ: " إن آثاركم تكتب، فلا تنتقلوا " (١).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: " خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ. قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ فَقَالَ: يَا بَنِي سَلِمَةَ ! دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ "، زاد في رواية: " فَقَالُوا: مَا كَانَ يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا " (٢).

وأخرج عبد الرزاق عن أبي سعيد ﷺ قال: شكت بنو سلمة إلى رسول الله ﷺ بُعْدَ منازلهم من المسجد، فأنزل الله تعالى: ﴿..وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ . .﴾ فقال النبي ﷺ: " عليكم منازلكم، فإنما تكتب آثاركم ".

معاني الكلمات :

نُحْيِي الْمَوْتَى : نبعثهم بعد الموت.

---

(١) ـ وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله.

(٢) ـ رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة برقم / ١٠٦٨ /.

وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا: أي نكتب في اللوح المحفوظ ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة.

وَآثَارَهُمْ: ما تركوه بعدهم من الحسنات المستمرّ نفعها بعد الموت، كالعلم النافع، والمسجد والمشفَى والمدرسة، أو من السيّئات كالمظالم، والأضرار، ونشر البدع والضلالات بين الناس.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ: وكُلَّ شَيْءٍ من أعمال العباد جمعنَاه وضبطناه. وحقيقة الإحصاء: العدّ والحساب، وهو هنا كناية عن الإحاطةِ والضبط، وعدم تخلُّف شَيْءٍ عن الذكر وَالتعيين، لأنّ الإحصاء والحساب يستلزم ألاّ يفوت شيء من المحسوباتِ.

إِمَامٍ مُبِينٍ: في اللوح المحفوظ، أو في صحائف العباد.

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً: مثّل لهم مثلاً يشبه حالهم وصفتهم، أي شَبَّهَ حالهم في تكذيبهم بالنبيِّ ﷺ بشبيه من السابقين. والمثل: الصفة والحال الغريبة التي تشبه المثل في الغرابة.

أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ: هي مدينة أبهم القرآن الكريم اسمها، كما أبهم اسم المرسلين إليها، ولم يرد في صحيح السنّة أو الآثار ما يعيّن شيئاً من ذلك، وقد دأب كثير من المفسّرين على أنّها مدينة أنطاكية، جنوبيّ تركيا، وشماليّ بلاد الشام، وليس ما يدعونا إلى تفسيرها بذلك.

إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ: هما اثنان من الرسل، وقيل: هم رسل من الحواريّين من أصحاب عيسى عليه السلام، وليس ما يدعونا إلى

القول بذلك [١].

---

(١) ـ **من هم أصحاب القرية؟** ذكر كثير من المفسّرين أنّ هذه القرية هي أنطاكية في شماليّ بلاد الشام، وأنّ الرسولَيْن هما من الحواريّين الذين أرسلهم عيسى عليه الصلاة والسلام.. وقد تأثّروا في ذلك بالروايات النصرانيّة التي تذكر أنّ مرقص صاحب الإنجيل اسمه يوحنا، وأنّه لازم خاله برنابا وبولس في رحلتهما إلى أنطاكية، وتبشيرهما بالمسيحيّة فيها، وقد ردّ ذلك ابن كثير في «تفسيره»، فقال: "وفي ذلك نظر من وجوه:

ـ **أوّلها**: أنّ ظاهر القصّة يدلّ على أنّ هؤلاء كانوا رسل الله عزّ وجلّ، لا من جهة المسيح عليه السلام.

ـ **ثانياً**: أنّ أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، وكانت أوّل مدينة آمنت بالمسيح، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربع، اللاتي فيهنّ بطاركة.

ـ **ثالثاً**: أنّ قصّة أنطاكية مع الحواريّين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة، وقد ذكر غير واحد من السلف أنّ الله تبارك وتعالى بعد إنزال التوراة لم يهلك أمّة من الأمم عن آخرهم، بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، فعلى هذا يتبيّن أنّ هذه القرية المذكورة في القرآن غير أنطاكية، فإنّ هذه لم يعرف أنّها أهلكت لا في الملّة النصرانيّة، ولا قبل ذلك". أقول: لقَد وقع في حمل هذه القصَّة على ما جاء في كتب أهل الْكتاب أجلّة منَ المفسّرين، وكأنّ الأمر مقطوع به كذلك، أو فيه نَصّ أو دليل، وكان يسعُهم تحقيق الإمام ابن كثير رحمه الله، ويبدو أنّ مَنْ أسلم مِن علماء أهل الكتاب قرءوا في كتبهم أنّ أنطاكية ذهب إليها ثلاثة من تَلاميذ المسيح عَليه السلام، فظنّوا أنّ القصّة يراد بها هذه الحادثة، وتابعهم عَلى ذلك كثير منَ الناس، وهذا من ضعف التحقيق،

فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ : قوّينا وأيّدنا بثالث.

إلا بَشَرٌ مِثْلُنا : مشاركون لنا في البشريّة، فليس لكم علينا من مزيّة.

تَطَيَّرْنا بِكُمْ : تشاءَمْنا بكم، مبالغةً منهم في استقْباح ما يدعون إليه، ونفورهم منه.

والتطيُّر في الأصل: تكلُّف معرفة دلالة الطير على خير أو شرّ، بالنظر إلى نوع الطير، وصفة اندفاعه وجهة اندفاعه أو مجيئه، ثمّ أطلق على كلّ حدث يتوهّم منه أحد أنّه كان سبباً في لحاق شرّ به فصار مرادفاً للتشاؤم.

فلا يكفي أن يكُون شَبه بيْن شَيءٍ وشيء حتّى نحكم أنّ هذا الشيء هو ذاك، ويَبدو كذلك أنّ اسم مُؤمن: «يس» هو من هذا القبيل أيضاً.

فاللهُ عزّ وجلّ أعلم أين وقعت هذه القصّة، فإنّ رسل الله تعالى كثيرون، ولم تخل أمّة من رسول أو نذير، وفي الأرْض بلاد كثيرة عذّبت لم يشر القرآن إليها بأعيانها، ولكنّ آثار عذابها لا تزالُ باقية شاهدة. والقاعدة العامّة: هيَ أنّ كلّ مدينة عذّبت لم تعذَّب إلاّ بعد أن قامت عليها الحُجّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص]، وقال سبحانه: ﴿..وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]. انظر تفسير ابن كثير ٤٩٨/٣، وتفسير الشيخ عبد الحميد طهماز لسورة يس ص/١٤، والأساس في التفسير للشيخ سعيد حوّى ٤٦٣٢/٨.

لَنَرْجُمَنَّكُمْ : لنقذفنّكم بالحجَارة.

وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ : ولينالنّكم منا عذاب مُؤْلم شديد.

طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ : سببُ شؤْمكم يعود عليكم، وهو الكفر والتكذيب.

أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ : أئِن وَعَظْناكم وذكّرناكم بالله تعالى، ودعوناكم إلى الحقّ، ونصحناكم تشاءمتم بنا وبما ندعوكم إليه.

قَوْمٌ مُسْرِفُونَ : مُتجاوزون الحدّ في الشرك ومخالفة الحقّ.

أَقْصَى الْمَدِينَةِ : أبعد مواضعها.

يَسْعَى: يسرع في مشيه لنصح قومه.

فَطَرَنِي : خلقني في أحسن صورة.

لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا : لا تستطيع أن تقدّم لي شيئاً من النفع.

وَلا يُنقِذُونِ : ولا تستطيع تلك الآلهة المزعومة أن تصرف عنّي شيئاً من الضرّ والأذى.

صَيْحَةً وَاحِدَةً : صوتاً مهلكاً من السماء.

خَامِدُونَ : ميّتون لا حراك بهم، كما تخمَد النار.

يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ : يا وَيْلاً أو يا تندُّماً ! على الخلق أن يكفروا، فتكون تلك عاقبتهم. والحسرة: شدّة الغمّ والندم مشوباً

بتلهّف على نفع فائت.

كَمْ أَهْلَكْنَا : كثيراً أهلكنا.

مِنْ الْقُرُونِ : من الأمم المَاضية.

لا يَرْجِعُونَ : أنّهم لا رجعة لهم إلى الدنيا.

مُحْضَرُونَ : نحضرهم للحساب والجزاء.

المعنى الإجمالي للآيات :

إنا نحن نحيي الأموات جميعاً ببعثهم ليوم القيامة، وجمعهم للحساب، ونكتب ما عملوا من الخير والشر، وآثارهم التي كانوا سبباً فيها في حياتهم وبعد مماتهم من خير، كالولد الصالح، والعلم النافع، والصدقة الجارية، أو شرّ كالكفر والعصيان، وكل شيء جمعناه وسجّلناه في كتاب واضح هو أمُّ الكتب ومرجعها، وهو اللوح المحفوظ. فعلى العاقل أن يحاسب نفسه، ويستقيم على مرضاة ربّه، ليكون قدوة للناس في الخير في حياته وبعد مماته.

واضرب ـ يا محمّد ﷺ ـ لمشركي مكّة، الرادّين لدعوتك.. اضرب لهم مثلاً بأصحاب مدينة فيه عبرة لهم، حين ذهب إليهم المرسلون، فلقد أرسلنا إليهم رسولَيْن لدعوتهم إلى الإيمان بالله تعالى، وترك عبادة من سواه، فكذّب أهل القرية الرسولَيْن، وأبوا الاستجابة لدعوة الحقّ، فقوّينا دعوتهم برسُول ثالث، فقال الثلاثة لأهل القرية: " إنّا مرسلون إليكم من ربّ العالمين ".

قال أهل القرية للمرسلين: ما أنتم إلاّ أناس مثلنا، لا مزيّة لكم علينا، وما أنزل الرحمن شيئاً من الوحي، وما دعوتكم لنا إلاّ كذب وافتراء.

فقال المرسلون: إنّ ربّنا الذي أرسلنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون، وما علينا إلاّ أن نبلّغكم رسالة ربّنا كما أمرنا، ولا نملك هدايتكم، فالهداية بيد الله وحده..

قال أهل القرية: إنّا تشاءمنا منكم، لئن لم تكفُّوا عن دعوتكم لنقتلنّكم رمياً بالحجارة، وليصيبنّكم منّا عذاب أليم موجع..

فقال المرسلون: إنّما شؤمكم وأعمالكم من الشرك بالله تعالى والشرّ معكم، ومردودة عليكم، ألأنّنا وعظناكم بما فيه خيركم وصلاحكم تشاءمتم بنا، وتوعدّتمونا بالرجم والتعذيب.؟! بل أنتم من عادتكم الإسراف في التكذيب والعصيان.

وهيّأ الله تعالى رجلاً مؤمناً صالحاً، فجاءهم من مكان بعيد من قريته، بعدما سمع بخبر المرسلين، وأنّ قومه يهمّون بقتل الرسل أو تعذيبهم، فنصح قومه بقوله: يا قومي اتّبعوا المرسلين إليكم من الله، إنّهم لا يطلبون منكم أموالاً على تبليغ الدعوة، ممّا يدلّكم على صدقهم وإخلاصهم، وهم مهتدون فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده، وفي هذا بيان فضل من سعى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثمّ قال لهم هذا الداعِي إلى الخير: كيف أعبد من دونِ الله آلهةً،

لا تملك من الأمر شيئاً ؟! إن قدّر الرحمن عليّ شيئاً من السوء، فهي لا تستطيع دفعه أو منعه، ولا تستطيع إنقاذي ممّا أنا فيه.؟ إنّي إن فعلت ذلك لفي انحراف عن الحقّ واضح، إنّي آمنت بربّي وربّكم، فاستمعوا ما قلته لكم، واستجيبوا للإيمان كما استجبت.. فلمّا قال لهم ذلك، وَثَبَ إليه قومه فقتلوه، فأدخله الله الجنّة، وقيل له بعد قتله إكراماً له: " ادخل الجنّة"، فقال وهو في النعيم والتكريم، متأسّفاً على حال قومه، مشفقاً على مصيرهم: يا ليت قومي يعلمون، بغفران ربّي لي، وإكرامه إيّاي بسبب إيماني بالله ورسله، وصبري في سبيله، ليتهم يعلمون ذلك فيستجيبوا كما استجبت، ليدخلوا الجنّة كما دخلت، وينالوا من الكرامة ما نلت..

وما احتاج عذاب هؤلاء المكذّبين المعاندين إلى إنزال جند من السماء، فهم أهون على الله وأضعف من ذلك، وما كنّا ننزل الملائكة على الأمم إذا أردنا إهلاكهم، بل نبعث عليهم عذاباً يدمّرهم، ويقضي عليهم، لقد جاءت هؤلاء صيحة واحدة، فإذا هم ميّتون، لم تبق منهم باقية..

فيا أسفاً على هؤلاء المكذّبين المستهزئين بالرسل، لما حلّ بهم من العذاب في الدنيا، وما سيعاينون بأعينهم يوم القيامة.! حين يرون العذاب فلا تنفعهم الندامة.

ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون التي أهلكناها أنهم لا يرجعون إلى هذه الدنيا ؟

ولكنّ كلّ هذه القرون التي أهلكها الله وغيرها سيحضرهم جميعاً

يوم القيامة للحساب والجزاء، فليس إحضارهم في أوقات مختلفة، ولا في أماكن متعدّدة، كما قضت بذلك حكمته وعدله وفضله، لينال كلّ مكلّف جزاءه، ولا يظلم ربّك أحداً.

الدروس والعبر :

١ ـ البعث حقّ، والإيمان به واجب، لأنّ الله تعالى قادر على كلّ شيء، وقد أحصى الله كل شيء من أعمال العباد وضبطه في كتاب مبين.

٢ ـ لقد نوّع الله تعالى في القرآن أساليب الدعوة إلى دينه: بِسَوْقِ الأدلة والبراهين، أو بالحثّ على النظر في خلق السموات والأرض، وما بثّ فيهما من دابّة، وإعمال العقل والفكر، أو بضرب الأمثال، وذكر قصص الأنبياء والمرسلين، وما كان من أخبار أقوامهم معهم، وكلّ ذلك ليتّضح الحقّ وتقوم الحجّة على الناس.

٣ ـ قضت حكمة الله تعالى أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، كيلا يبادر الناس إلى الاعتراض بحجة المغايرة والمخالفة، فيكون اعتراض الكافرين ببشرية الرسل نوعاً من المعاندة والاستكبار.

٤ ـ إنّ تشاؤم أصحاب القرية بالرسل دليل على فساد تفكيرهم وإفلاس حجتهم، ولكنّ الشؤم الحقيقي هو من أهل القرية لشركهم بالله تعالى وكفرهم، وتكذيبهم للرسل عليهم السلام، وعنادهم للحقّ.

٥ ـ قضت حكمة الله تعالى ألاّ يرجع أحد إلى الدنيا بعد موته، وإنّما موعد الخلق جميعاً هو يوم القيامة، لفصل القضاء بين الناس، وإقامة العدل بين العباد، وفي الآيات تكذيب وردّ على من يقول بتناسخ الأرواح أو بالرجعة بعد الموت إلاّ ما كان من ذلك خصوصيّة من الله لبعض عباده، أو معجزة وتكرمة، كقصّة عُزير، أو إحياء الموتى لعيسى عليه السلام، أو ما أشبه ذلك.

٦ ـ على المؤمن الداعية أن يوطّن نفسه على الابتلاء في سبيل دينه، وقد يبلغ به الابتلاء القتل في سبيل الله، أو السجن، أو التشريد في الأرض، ولكنّ جزاءه عند الله هو النعيم المقيم، والتكريم في جنان الخلد.

٧ ـ المؤمن الحقُّ يحبُّ للناس ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، وهذا المؤمن، أبلغ في النصح لقومه، حتّى نال شرف الموت في سبيل الله تعالى، كما قال ابن عبّاس ﷺ: " **نصح قومه حيّاً وميتاً** "، وقال ابن أبي ليلى: " سُبّاق الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب ﷺ، وهو أفضلهم، ومؤمن آل فرعون، وصاحب «يس»، فهم الصدّيقون ". أي هم من أعلى الصدّيقين قدراً عند الله تعالى.

٨ ـ قال الإمام القرطبيّ رحمه الله: " وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، وأهل البغي، والتشمّر في تخليصه، والتلطّف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به أو

الدعاء عليه، ألا ترى كيف تمنّى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل، وهم كفرة عبدة أصنام.؟ ".

وهكذا ينبغي أن تمتلئ قلوب الدعاة إلى الله شفقة على عباد الله، وألماً وحسرة على فسادهم وانحرافهم عن سبيل الله.

اتّصال الآيات بما بعدها :

بعدما ضرب الله تعالى مثلاً فيه عبرة وعظة للمشركين، بما حلّ بأصحاب القرية المكذّبين من العذاب الدنيويّ العاجل، والنقمة الشديدة، ساق لهم الأدلّة البيّنة المتنوّعة على قدرته سُبحانه على الخلق، بما أبدع في هذا الكون من عظيم الآيات البيّنات، وعجائب القدرة التي لا يحدُّها شيء ولا يُعجزها، ومَن خلق تلك المخلوقات من العدم، وأبدع صنعها، وأحكم نظامها أليس بقادر على خلقها مرّة أخرى، وبعثها بعد موتها؟.

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: ـ **أحْصَيْنَاهُ في إِمَامٍ مُبِينٍ ـ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ـ فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ـ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ـ وَلا يُنقِذُونِ ـ خَامِدُونَ ـ مُحْضَرُونَ**.

السؤال الثاني : وضّح المعنى الإجماليّ لقوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

السؤال الثالث : اذكر أهمّ ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

السؤال الرابع : إنّ موقف الرجل المؤمن من قومه فيه درس بليغ للدعاة إلى الله تعالى بما ينبغي أن تكون عليه علاقتهم بالناس وضّح ذلك ممّا فهمت من الآيات.

* * * * *

الفصل الثالث

من آيات القدرة والإبداع

قال الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

* * * * *

بين يدي الآيات :

ما أكثر آيات الله الدالّة على وحدانيّته وقدرته، المبثوثة فيما حولنا من هذا الكون الكبير، نراها صباح مساء.. ولا نكاد نحسُّ بها لأنّنا تعوَّدنا عليها، وألِفنا النظر إليها، فلم تعد تثير تفكيرنا أو تأمّلنا، والإنسان أحوجُ ما يكون إلى أن يُوجَّه نظره إلى ما فيها من بديع خلق الله سبحانه، ودقّة صُنعه، وكيف أنّها مسخّرة لمصالح الإنسان ورفاهته، ملائمة لفطرته واحتياجاته.. إنّها تجمع بين حكمة الخلق، ودقّة الصنع، وجمال المنظر المبهج للنفس، وإثبات القدرة ـ وهي لا يعجزها شيء ـ على البعث بعد الموت ﴿..صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل].

معاني الكلمات :

وَآيَةٌ : علامة دالّة على القدرة المطلقة، ومن أخصّ ذلك القدرة على البعث بعد الموت.

الأَرْضُ الْمَيْتَةُ : التي لا نبات فيها.

أَحْيَيْنَاهَا : بالماء فصارت حيّة بالنبات.

وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا : جنس الحَبّ كالحنطة وغيرها.

جَنَّاتٍ : جمع جَنّة، وهي البساتين ذات الأشجَار المثمرة كالنخيل والأعناب.

وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ : شقَقنا في الأرض العيون الجارية بالماء على سطحها.

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ : وما صنعته أيديهم من ثمار تلك الجنّات كالعصير والدبس.

أَفَلا يَشْكُرُونَ : أفلا يعترفون بأنعم الله فيعبدون الله ويشكرونه.

سُبْحَانَ : تنزيهاً لله تعالى عمّا لا يليق به.

خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا : خلق جَميع الأصناف والأنواع المختلفة، والأزواج: جمع زوج، ويطلق على كلّ من الذكر والأنثى من الحيوان، ويطلق الزوج على معنى الصنف المتميّز بخواصّه من نوع الموجودات تشبيهاً له بصنف الذكر وصنف الأنثى، وتحتمل الآية المعنيين وتشملهما.

مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ : من النبات والشجر، لأنّ النُّطف تتولّد من قوى الأغذية الحاصلة من تناول النبات.

وَمِنْ أَنفُسِهِمْ : وخلق الأزواجَ مِنْ أَنفُسِهِمْ، وهم الذكور والإناث من بني آدم خلقهم ممّا يتكوّن فيهم من أجزائهم الحيوانيّة.

وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ : من أصناف المخلوقات العجيبة في البرّ

والبحر، وفي السماء والأرض، ممّا لم يطلعهم الله عليه، ولم يجعل لهم سبيلاً إلى معرفته، وقد يعرّفهم الله به بعد حين.

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ: نَفْصِلُ منه النهار ونزيله عنه، والسَّلْخ: إذهاب الضوء، ومجيء الظلمة، وأصله إزالة الجلد عن حيوانه.

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا: تطلع وتسير لحدّ معيّن، ينتهي إليه جَرَيانها ودورانها، والمعنى أنّها تسير سَيْراً دائباً مشاهداً إلى أن تبلغ الاحتجاب عن الأنظار.

قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ: حدّدنَا سيره في منازل. والتقدير: يطلق على جعل الشيء بقدْر ونظام مُحْكم، ويطلق على تحديد المقدار ممّا تطلب معرفة مقداره، كتقدير الأوقات والكميّات من الموزونات والمعدودات، وكلا الإطلاقين مراد هنا. والمنازل: جمع منزلة، وهي المسافة التي يقطعها القمر في يوم وليلة.

كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ: كعود عِذْق النخلة القديم الذي يكون الثمر في منتهاه.

وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ: أي لا يأتي قبل انقضائه، ولا يسبقه.

فِي فَلَكٍ: هو المدار المفروض «المقدّر» الذي يدور فيه الكوكب، ويسير سَيْراً مطّرداً لا يحيد عنه، ويطلق على قبّة السماء التي هي مجتمع الأفلاك.

يَسْبَحُونَ: يسيرون ويدورون.

ذُرِّيَّتَهُمْ: أولادهم وذرّيّتهم.

الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ: السفينة المملوءة الموقرة. وهي سفينة نوح عليه السلام.

وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ: ممّا علّمناهم من صناعة السفن والزوارق، أو ما خلق الله من الإبل والخيل، والبغال والحمير.

فَلا صَرِيخَ لَهُمْ: لا يجدون من يَسْتصرخون به وهم في لُجَجِ البحر، ولا ينقذهم أحدٌ من الغرق.

إِلاّ رَحمةً منّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ: أي لا أحد ينقذهم وينجيهم إلاّ بتقديرنا وإرادتنا، أن يبقوا أحياء إلى استيفاء أعمارهم، وانقضاء آجَالهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

ومن دلائل قدرة الله تعالى على البعث والنشور: هذه الأرض الميتة، التي لا نبات فيها، أحياها الله بإنزال الماء، وأخرج منها أنواع النبات مما يأكل الناس والأنعام، وجعل فيها بساتين من نخيل وأعناب، وفجر فيها من عيون المياه، التي تجري على وجه الأرض، ومن أحيا الأرض بالنبات أحيا الخلق بعد الممات.

كلّ ذلك ؛ ليأكل العباد من رزق الله وثمره، وما ذلك إلاّ من رحمة الله تعالى بهم، وفضله عليهم، لا بسعيهم ولا بكدّهم، ولا بحولهم أو قوّتهم، أفلا يشكرون الله سبحانه على ما أنعم به عليهم من

هذه النعم التي لا تعدُّ ولا تُحصى؟.

فتنزَّه الله العظيم الذي خَلَق هذه الأصناف جميعها من أنواع نبات الأرض، ومن أنفسهم ذكوراً وإناثاً، ومما لا يعلمون من مخلوقات الله الأخرى، لقد انفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة وبديع الصُّنع، فلا ينبغي أن يشرك به غيره.

ومن العلامات الدالة على توحيد الله تعالى وكمال قدرته: هذا الليل عندما ننزع منه النهار، فيعمّ الظلام حياة الناس.

والشمس آية لهم عظيمة، تجري في فلك السماء لمستقر لها، قد قدّره الله لها، فهي لا تتعدّاه ولا تقصر عنه، ذلك تقدير العزيز الذي لا يغالب، العليم الذي لا يغيب عن علمه شيء.

وقد جاء في الحديث الصحيح ما يفسّر مستقرّها، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ يَوْمًا: «أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذه الشَّمْسُ ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: إِنَّ هَذه تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، فَلا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا، ثُمَّ تَجْرِي حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَخِرُّ سَاجِدَةً، وَلا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُقَالَ لَهَا: ارْتَفِعِي ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْت، فَتَرْجِعُ فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَطْلِعِهَا ثُمَّ تَجْرِي لا يَسْتَنْكِرُ النَّاسَ مِنْهَا شَيْئًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى مُسْتَقَرِّهَا ذَاكَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَيُقَالُ لَهَا: ارْتَفِعِي أَصْبِحِي طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِك، فَتُصْبِحُ طَالِعَةً مِنْ مَغْرِبِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَتَدْرُونَ مَتَى ذَاكُمْ ؟ ذَاكَ حِينَ: «**لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ، أَوْ كَسَبَتْ فِي**

إِيمَانِهَا خَيْرًا» [١].

والقمر آيةٌ من آيات الله في خلقه، قدَّره منازل كل ليلة: يبدأ هلالاً ضئيلاً، حتى يكمل قمراً مستديراً، ثم يرجع ضئيلاً مثل عِذْق النخلة المتقوِّس في الرقة والانحناء.

ولكلٍّ من الشَّمس والقمر، والليل والنهار، وسائر النجوم والكواكب وقت قدَّره الله لها لا تتعداه، ولا تقصر عنه، فلا يمكن للشمس أن تلحق القمر، فتمحو نوره، أو تغيِّر مجراه، ولا يمكن لليل أن يسبق النهار، فيدخل عليه قبل انقضاء وقته المقدّر بدقّة، والغرض من ذلك: التذكير بنعمة الليل ونعمة النهار، فإنّ لكليهما فوائد للناس، فلو طغى أحدهما على الآخر، فاستقرّ في الأفق لتعطّلت منافع الناس والحيوان، ولاختلّ نظام الكون، وكلٌّ من الشمس والقمر والكواكب يجرون في فلك إلى أجل معلوم [٢].

---

(١) ـ رواه مسلم في كتاب الإيمان /٢٢٨/، وقد يكون المقصود بسجود الشمس كلّ يوم تحت العرش تمثيلاً لطاعتها لله، وتسخير الله إيّاها وفق ما شاء من نظام وحكمة، كما في قوله تعالى: ﴿...فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ فصلت.

(٢) ـ يقول الشَّيخ نديم الجسر في كتابه قصَّة الإيمان ص/٣٠٧/: " لقد رأى العلماء أنّ لِهذه النجوم مواقع لا تتبدّل ولا تتغيّر، فَظنّوها ثابتة، وسمّوها (الثوابت) ومِنْها شَمسنا، وَما هي بثوابت، كما حقّق العلماء في هَذا العصرِ، بلْ كلُّهَا تدور وتجري لمستقرّ لها، في مجريين مُختلفَيْن، يتداخَل

ومن الأدلّة والبراهين على أن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة، لأنّه المنعم بالنعم كلّها، أنّا حملنا المؤمنين، وهم أصول هؤلاء المشركين ومَنْ على ظهر الأرض في سفينة نوح، وملأناها بأجناس المخلوقات، ونجّيناهم من الطوفان لتستمرّ الحياة في الأرض بعد هلاك الكافرين.

وخلقنا لهؤلاء المشركين وغيرهم مثل سفينة نوح، من السفن وغيرها من المراكب التي يركبونها، وتحقّق لهم مصالحهم، وتبلغهم أوطانهم.

وإن نشأ نغرقهم، فلا يستطيعون النجاة، ولا يجدون من يغيثهم من الغرق ؛ إلاّ أن نرحمهم فننجيهم ونمتّعهم إلى أجل معلوم ؛ لعلّهم يرجعون، ويستدركون ما فرّطوا فيه.

أحدهمَا في الآخر، ولكنّ هذَا الجَري يتمّ ويستمرّ في مواقع ومدارات لا تتبدّل، ولا تتغيّر نسبة بعضها إلى بعض علَى كرّ الدهُور بذلِك النظام العجيبِ.. إنّ الشمس نجم من نجوم هذِه المجرّة.. إنّها تجري مثلَها، وتسحب وراءها موكبها منَ السيّارات ومِن جملَتها الأرْض.. لقد عرف العلَماء مِنْ قَبل أنَّها تدور عَلَى محوَرها مرّة في مدّة /٢٦/ يوماً، ولكنّهم كانوا يحسبونها ثَابتة، لا تنتقلَ ولا تَجري، أمّا اليوم فقد ثبتَ لهم ثبوتاً لا رَيْب فيه أنّها تجري، وأنّ النظام الشمسيَّ كلّه يجري في السَّماء، كما تجري كلّ النجُوم في مجرّتنا وفيمَا وراءها جرياً عَجيباً لِمستقرّ لها، كما يقول القرآن الكريم".

الدروس والعبر :

١ ـ من الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغير ذلك: إحياء الإرض الهامدة بالنبات الأخضر، وإخراج الحب منها، الذي هو قوام الحياة، وأساس القوت والمعاش.

٢ ـ ومن الأدلة أيضاً: خلق البساتين في الأرض وما فيها من نخيل وأعناب، وتفجير الينابيع فيها للأكل من ثمر ماء العيون، أو من ثمر الجنات والنخيل، وممّا عملته أيدي الناس من الثمار، ومن أصناف الحلاوات والأطعمة، ومما اتَّخذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.

٣ ـ وفي الآية: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ إشارة واضحة مرغّبة بإدخال الصناعة في الزراعة ليعظم خيرها، ويعمّ نفعها، وتفتح للناس باباً للارتزاق واسعاً، إذ إنّ الله تعالى قد امتنّ على عباده بما يأكلون ممّا تخرج الأرض، وما علّمهم ممّا تصنعه أيديهم، ولولا أنّ ذلك ممّا يرغبه لعباده، ويرشدهم إليه ممّا يصلح معاشهم، ويديم نعم الله عليهم، لما ذكره في معرض ذكر النعم والامتنان بها، وهذه النعم تستوجب شكر الخالق المنعم المتفضِّل، وشكُره يكون بعبادته سبحانه، والإذعان لسلطانه وأمره.

٤ ـ يجبُ تنزيهُ الخالق عمَّا لا يليق به، والبعد عن صنيع الكفار

الذين عبدوا غير الله سبحانه، مع ما رأوا من نعم الله وآثار قدرته.

٥ ـ إن آثار قدرة الله ومظاهرها في العالم كثير، منها خلق النبات والثمار، المختلفة الألوان والطعوم، والأشكال والأحجام، صغراً وكبراً. ومنها خلق الأولاد والازواج أي ذكوراً وإناثاً، ومنها خلق أصناف أخرى لا يعلمها البشر في البر والبحر، والسماء والأرض، وإذا كان الله تعالى قد انفرد بالخلق، فكيف يشرك به ما لا يملك نفعاً ولا ضراً؟!.

٦ ـ ومن العلامات الدالة أيضاً على توحيد الله تعالى وقدرته، ووجوب عبادته: تعاقب الليل والنهار، وما يتبعهما من ظلمة وضوء لتحقيق مصالح العباد، وضبط السنين والحساب، وجريان الشمس لمستقر لها، وهو محورها أو نهاية سَيْرها يوم القيامة، وتقدير القمر منازل، هي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل القمر كلّ ليلة بمنزل منها، فإذا صار في آخرها، عاد إلى أولها، فيقطع الفلك في ثمان وعشرين ليلة، ثمّ يَسْتَتر، ثمّ يطلع هلالاً، فيعود إلى قطع الفلك على المنازل، وهي منقسمة على البروج، لكل برج منزلان وثلث.

٧ ـ ومن آيات الله سبحانه: جعْلُ مدار مستقل، لكلّ من الشمس والقمر والأرض، فلا يدخل أحدها على الآخر، كما لا يتجاوز مساره المرسوم.

٨ ـ ومن دلائل قدرة الله ورحمته: حمل ذريّة القرون الماضية والحاضرة والمقبلة في السفن المملوءة بالسلع والأمتعة، وخلق وسائط أخرى للركوب مماثلة للسفن، وهي الإبل سفن الصحراء

والبراري، ووسائل النقل الحديثة في البرّ والجوّ من سيارات وقطارات وطائرات ونحوها، وهذه آية من آيات الله المشهودة في كلّ وقت، فيها عبرة لكلّ ذي قلب.!

٩ ـ والله قادر على أغراق ركاب السُّفن في البحار، فلا يغيثهم أحد، ولا يجيرُهم، ولا ينقذهم، ولكن رحمة الله تعالى اقتضت إبقاءهم وإنقاذهم ليتمتعوا بمتع الحياة الدنيوية إلى آجالهم المرسومة، وأعمارهم المحدودة، ثمّ يكون جزاؤهم عند الله على ما قدّموا في هذه الحياة.

اتّصال الآيات بما بعدها :

وبعدما يسوق القرآن الكريم آيات بيّنات على قدرة الله تعالى الظاهرة للعيان على الخلق، وما فيه من مظاهر الإبداع ودقّة الصنع، الذي يدلّ على قدرته سبحانه على البعث بعد الموت، تأتي الآيات في الفصل الرابع لتبيّن مواقف الكافرين المكابرة المعاندة للحقّ، التي يبرّرون بها في زعمهم إنكارهم للبعث بعد الموت، واستبعادهم للحساب والجزاء، ممّا يُرشّح إلى الحديث عن مشاهد من يوم القيامة لما ينتظرُ هؤلاء الكافرين المعاندين من أهوال شِداد، وعذابٍ عظيم، ومَا يقابل ذَلك من نعيم للمؤمنين وتكريم، ولَعلَّ في ذلكَ ما يردع هؤلاء الكافرين عن غيِّهم وطغْيانهم، ويردّهم إلى رشدهم.

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: **وَآيَةٌ - سُبْحَانَ - نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ - كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ - فَلا صَرِيخَ لَهُمْ - الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ.**

السؤال الثاني : وضّح المعنى الإجماليّ للآيات: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..﴾.

السؤال الثالث : امتنَّ الله على عباده في الآيات السابقة بأنواعٍ من المنن والنعم، عدّد أهمّها، ووضّح دلالاتها.

* * * * *

الفصل الرابع

حوار مع الكافرين والمصير المنتظر

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ

تَكْفُرُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ .

بين يدي الآيات :

وإذا كان المشركون لم ينتفعوا بآيات الله المشهودة، ولم يستجيبوا لما فيها من دلائل بيّنات، وحجج ظاهرات، فلن يستجيبوا للآيات المتلوّة في القرآن، ولن ينتفعوا بمواعظه وتذكيره بما حلّ بالأمم المكذّبة.. ومع ذلك، ولتقوم الحجّة على أتمّ وجهٍ وأوفاه فإنّ أسلوب القرآن الكريم يتنوّع في عرض مواقف الكافرين وحججهم المتهافتة من قضيّة الإيمان باليوم الآخر، وتتنوّع كذلك المشاهد التي يعرضها من أحوال الآخرة وأهوالها، وفي جلّ الأحوال تعرض في القرآن الكريم صور النعيم للمؤمنين والتكريم متجاورة مع أهوال الحشر، وشدّة الحساب على الكافرين، وما ينتظرهم من العذاب المهين.. وكلّ ذلك لتقطع شبهات المشتبهين، وتقوم الحجّة على المكابرين المعاندين، ويبين الصبح لذي لبّ وبصيرة، ولا يماري بطلعة الشمس ذو عينين.. ومن ثمّ يطول هذا الفصل الذي بين أيدينا ويمتدّ، لأنّه يمثّل محوراً أساسيّاً من محاور هذه السورة، كما يُعدّ من مقاصد القرآن الرئيسة..

معاني الكلمات :

اتَّقُوْا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : ما سبقكم في الدنيا من أحوال الأمم المكذّبين، أو ما يحلّ بهم من الآفات والمصائب والنوازل.

وَمَا خَلْفَكُمْ : وما ينتظركم من عَذاب الآخرة. **أو** المعنى: مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ: ما ينتظركم من عَذاب الآخرة، وَمَا خَلْفَكُمْ: من أحوال الأمم في الدنيا، وكلا المعنيين صحيح.

مُعْرِضِينَ : غيرَ مبالين، ولا ملتفتين.

مَتَى هَذَا الْوَعْدُ : متى يجيء البعث ويتحقّق، أو يحلّ العذاب، وهذا من عنادهم وشدّة تكذيبهم.

صَيْحَةً وَاحِدَةً : النفخة الأولى وهي نفخة الموت.

وَهُمْ يَخِصِّمُونَ : يختصمون في أمورهم وتجاراتهم غافلين عمّا ينتظرهم.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ : النفخة الثانية، وهي نفخة البعث.

الأَجْدَاثِ : القبور جمع جَدَث.

يَنسِلُونَ : يسرعون في الخروج.

مِنْ مَرْقَدِنَا : قبورنا.

صَيْحَةً وَاحِدَةً : هي نفخة البعث. وفي ذلك تهوين لأمر البعث

صَيْحَةً وَاحِدَةً : هي نفخة البعث. وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر، وأنّ الله غنيّ عن الأسباب المألوفة في الدنيا.

مُحْضَرُونَ : حاضرون مجموعون للحساب والجَزاء.

شُغُلٍ : نعيم عظيم، يشغلهم عمّا سواه.

فَاكِهُونَ : متلذّذون أو فرحون.

في ظِلالٍ: جمع ظِلّ، وهو ما لا تصيبه الشمس.

عَلَى الأرَائِكِ مُتَّكِئُونَ : السُّرر في البيوت المزيّنة بالثياب والأسرّة والستور.

وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ: ما يتمنّونه ويشتهونه ويطلبونه من أنواع الملذّات والنعيم.

سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ : وأعظم ما يتمنّون سلام الله عليهم، تكريماً لهم ورضواناً.

وَامْتَازُوا : تميّزوا وانفردوا عن المؤمنين.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ : ألم أوصكم وأكلّفكم.

أَلا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ : ألاّ تطيعوه وتستجيبوا لوسوسته.

جِبِلاً : خلقاً أو جَماعة عظيمة.

اصْلَوْهَا : اُدخلوها وقاسوا حرّها.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ : نغلقها فلا يستطيعون الكلام.

لَطَمَسْنَا على أعينِهُم : أعميناهم أو صيّرناها ممسوحة لا يرى لها شقّ.

فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ : ابتدروا الطريق ليجوزوه.

فَأَنَّى يُبْصِرُونَ : فكيف يبصرون الطريق.؟

لَمَسَخْنَاهُمْ : لغيّرنا صورتهم إلى أقبح صورة.

عَلَى مَكَانَتِهِمْ : في مكان معاصيهم أو في منازلهم.

فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا، وَلا يَرْجِعُونَ : فَلم يقدروا على ذهاب أو عودة.

نُعَمِّرْهُ : نطل عمره.

نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ : نردُّه إلى أرذل العمر، فيصبح بعدَ قوّته وشبابه ضعيفاً هرماً.

المعنى الإجمالي للآيات :

وإذا قيل لهؤلاء المشركين: احذروا الآخرة وأهوالها، ومصائب الدنيا وعقابها، رجاء رحمة الله لكم، أعرضوا ولم يستجيبوا، وأصرُّوا على ما هم فيه من كفر وطغيان.

وما تجيء هؤلاء المشركين من حجّة بيّنة واضحة من عند ربِّهم، لتهديهم للحقّ، وتبيِّن لهم صدق الرسول ﷺ، إلاّ جَحَدوا بها، وأعرضوا عنها.

وإذا قيل لهم: أنفقوا من الرزق الذي منَّ الله به عليكم، قالوا مكابرين للحقّ، معاندين للمؤمنين: كيف نرحم ونطعم من لو يشاء الله رحمه وأطعمه؟.

فكما أنّهم أخلُّوا بتعظيم الخالق، وأداء حقّ العبوديَّة لله فقد حُرموا العطف والشَّفقة على الإنسانية، وانعدمت عندهم عاطفة الرحمة بالمخلوقات، فهم إذا دُعوا إلى الإنفاق ممَّا رزقهم الله بخلوا وتهكموا، وجادلوا بالباطل وتهرّبوا، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

ويقولون للمؤمنين: لستم ـ أيها المؤمنون ـ فيما تقولون لنا إلا في ضلال واضح عن الحق، إذ تأمروننا بذلك.

ويقولون للمؤمنين على وجه التكذيب والعناد والاستنكار: متى يكون البعث إن كنتم صادقين فيما تقولون عنه ؟

فيأتيهم الردُّ من الله تعالى: ما ينتظر هؤلاء المشركون الذين يستعجلون بوعيد الله وعذابه إلاّ نفخة الفزع عند قيام الساعة، التي تأخذهم فجأة، وهم منهمكون في شؤون حياتهم يختصمون.

فلا يستطيعون عند سماع النفخ في الصُّور أن يوصوا أحداً بشيء، كما لا يستطيعون الرجوع إلى أهليهم، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

وعندما ينفخ في الصور النفخة الثانية، تردُّ أرواحهم إلى أجسادهم، فيخرجون من قبورهم سراعاً إلى ربهم.

ويقول عندئذ هؤلاء المكذبون بالبعث ـ نادمين متحسّرين ـ: يا

حَسْرَتَنا ! ويا هلاكَنَا! مَنْ أخرجنا من قبورنا ؟ فيأتيهم الجواب: هذا ما وعد الرحمن، وأخبركم عنه المرسلون الصادقون.

فما كان البعث من القبور إلا نتيجة نفخة واحدة في الصور، فإذا جميع الخلق ماثلون لدينا للحساب والجزاء، وفي ذلك اليوم يتمّ الحساب بالعدل، فلا تُظلم نفسٌ شيئاً بنقص حسناتها أو زيادة سيئاتها، ولا يُجزى أحد إلا بما عمل في الدنيا.

وإنّ أهل الجنة في ذلك اليوم مشغولون عن غيرهم بأنواع النعيم التي يتفكّهون بها ويتنعّمون، إنّهم هم وأزواجهم يتنعمون بالجلوس على الأسرة المزيّنة، تحت الظلال الوارفة، ولهم في الجنة أنواع الفاكهة اللذيذة، ولهم كلّ ما يطلبون من أنواع النعيم، ولهم فوق ذلك نعيم آخر أكبر، حين يكلّمهم ربّهم، وهو الرحيم بهم، ويسلّم عليهم، فتحصل لهم السلامة التامّة والسعادة، ويحظَوْنَ بتكريم ما بعده من تكريم.!

وفي ذلك اليوم يقال للكفار: تميَّزوا عن المؤمنين، وانفصلوا عنهم، ويقول الله لهم توبيخاً وتذكيراً: ألم أُوصكم على ألسنة رسلي ألاّ تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه ؟ إنّه لكم عدوّ ظاهر العداوة لا يريد لكم إلاّ الشقاء والوقوع فيما يغضب الله، ولقد أمرتكم بعبادتي وحدي، فعبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان هو الدين القويم الموصل لمرضاتي وجنّتي.

ولقد أضل الشيطان منكم خلقاً كثيراً عن الحقّ، أفما كان لكم ـ أيها المشركون ـ عقل ينهاكم عن اتّباعه وطاعته.؟!

ـ ثمّ يقال لهم: هذه جهنم التي كنتم توعدون بها في الدنيا على كفركم بالله تعالى وتكذيبكم لرسله، ادخلوها اليوم وقاسوا حرّها ؛ بسبب ما كنتم عليه من الكفر والجحود.

وفي ذلك اليوم نطبع على أفواه المشركين فلا ينطقون، وتكلمنا أيديهم بما بطشت به، وتشهد أرجلهم بما سعت إليه في الدنيا، وكسبت من الآثام، فلا يستطيعون التنصّل من جرائمهم، وما كانوا عليه من الظلم والفساد.

ولو نشاء لطمسنا على أعينهم بأن نذهب أبصارهم، كما ختمنا على أفواههم، فإذا بادروا إلى الصراط ليجوزوه لم يستطيعوا، إذ كيف يتحقق لهم ذلك، وقد طمست أبصارهم ؟! فتخطفهم كلاليب جهنّم، ويسقطون فيها [1].

---

(١) ـ ذهب أكثر المفسّرينَ بل جمهورهم من المتقدّمين والمعاصرين، وجلّهم ينقل عن بعضهم، إلى أنّ المراد بالآية الحديثُ عنْ حال الكافرين في الدنيا، ففسّروا الصراط بالطريق المعروف، مع أنّ سِياقَ الآية وسباقَها الحديثُ عن مشهد مِن مشاهد يوم القيامة، بدءاً من قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فكان الأصحّ والأرجح أن تفسّر الآية بما يعرض للكافرين من أهوال يوم القيامة ومواقفه، فالكافر الذي عاند الحقّ في هذه الحياة، وطمس بصيرته عن رؤية آيات الله تعالى في نفسه، وفي الآفاق من حوله، يعاقب يوم القيامة بأن يطمس بصره وهوَ في أشدّ الحاجة إليه، عندما يقدّم إلى الصراط ليجتازه، فيفاجأ بطمس بصره، ويحاول أن يبادر قبل ذلك،

ولو شئنا لغيَّرنا خلقهم، وأقعدناهم في أماكنهم، فلم يستطيعوا المضيَّ أمامهم، ولا أن يرجعوا وراءهم.! أفلا يعتبرون بذلك ويتّعظون؟!.

ومن نطل عمره حتّى يهرم نردّه إلى حالة ضعف العقل وضعف الجسد، التي ابتدأت بها حياته، أفلا يعقلون أنّ من فعل بهم مثل هذا قادرٌ على بعثهم وحسابهم.؟!

فهيهات هيهات.! ويؤيّد ذلك عموم ما جاء في قول الله جلّ وعلا: ﴿**ومَن أعرضَ عنْ ذِكري فإنّ لهُ مَعِيشةً ضَنكاً، ونحشرُه يومَ القيامةِ أعمَى**﴾ [طه]. وقد نقلَ الإمام القرطبيّ في تفسيره عن عبد الله ابن سلام رضي الله عنه ما يؤيّد هذا القول ويعضده: يقول الإمام القرطبيّ: وقد روي عن عبد الله بن سلام في تأويل هذه الآية غير ما تقدّم، وتأوّلها على أنّها في يوم القيامة، وقال: إذا كان يوم القيامة، ومدّ الصراط، نادى منادٍ: ليقم محمّد ﷺ وأمّته، فيقومون برّهم وفاجرهم، يتّبعونه ليجوزوا الصراط، فإذا صاروا عليه طمس الله أعين فجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتّى يجاوزوه؟ ثمّ ينادي منادٍ: ليقم عيسى ﷺ وأمّته، فيقوم فيتّبعونه برّهم وفاجرهم، فيكون سبيلهم تلك السبيل، وكذا سائر الأنبياء عليهم السلام. انظر تفسير القرطبي ١٥/٥٠. ويؤيّد هذه الرواية ما جاء في صحاح الأحاديث من أنّ مرور الناس على الصراط إنما هو على حسب أعمالهم ؛ فمنهم من يمرّ كالبرق الخاطف، ومنهم كراكب الجواد السريع، ومنهم من يحبو على الصراط حَبْواً، ومنهم مخدوش مسلّم، ومنهم من تتخطّفه كلاليب جهنّم.

الدروس والعبر :

١ ـ كان الردُّ الحاسم على استعجال الكفار قيام الساعة استهزاء أنها تاتي فجأة كلمح البصر أو هي أقرب، وتحدث بنفخة واحدة هي نفخة إسرافيل في وقت يختصم الناس في أمور دنياهم، فيموتون في مكانهم، وهذه هي نفخة الصَّعْق.

٢ ـ من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنون من العودة إلى ديارهم إذا كانوا خارجين منها، ولا يستطيعون الإيصاء إلى غيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل: لا يستطيع أن يوصي بعضهم بعضاً بالتوبة، بل يموتون في أسواقهم ومواضعهم.

٣ ـ ثم تأتي النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور من القبور، فهما نفختان، لا ثلاث، بدليل هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

وروى المبارك بن فضالة عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «**بين النفختين أربعون سنة، الأولى يميت الله بها كل حي، والأخرى يحيي الله بها كل ميت**».

٤ ـ يتعجَّب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يرون من شدائد الأهوال فيتساءلون عمَّن أخرجهم من قبورهم، مفضلين عذاب القبر؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

٥ ـ عندما تحدث النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، يخرج الناس جميعاً مسرعين إلى لقاء ربهم للحساب والجزاء، كما

قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر].

٦ ـ الحساب حقٌّ وعدل، والجزاء قائم على العدل المطلق فلا ينقص من ثواب العمل أي شيء مهما قلَّ، ولا يجزى الناس إلاّ بما عملوا من خير أو شرّ.

٧ ـ إن أصحاب الجنة يتنعّمُون فيها نعيماً ماديّاً وروحيّاً، وليس روحيّاً فقط، فهم في شُغُل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي في النار، وما هم فيه من أليم العذاب، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

٨ ـ يتنعَّمُ أهل الجنة بأنواع النعيم هم وأزواجهم، تحت ستور تظلّلهم، وعلى الأرائك متكئون «أي السُّرر في الحجال، كالناموسيات».

٩ ـ ولهم في الجنّة أنواع من الفاكهة لا تعدُّ ولا تحصى، ولهم كلّ ما يتمنّون ويشتهون، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ.

١٠ ـ ولهم أكمل الأشياء وأعلاها الذي لا شيء فوقه وهو السلام من الله الربّ الرحيم، إمّا بوساطة الملائكة، أو بغير وساطة، مبالغة في تعظيمهم، وذلك غاية ما يتمنّونه وما يكرمهم الله به.

١١ ـ وفي الآخرة يُميّز المجرمون عن المؤمنين، ويعزلون تحقيراً لهم، وإعداداً لِسَوْقهم إلى نار جهنم، وذلك حينُ يؤمر بأهل الجنّة إلى الجنّة، فيقال للمجرمين: اُخرجوا من جملتهم.

اتّصال الآيات بما بعدها :

أفمَن أنعم على عباده بهذه النعم كلّها، وجعل كُلَّ ما في الكون مسخّراً لهم، ومحقّقاً لمصالحهم، وأعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى من أصغر ذرّة في هذا الوُجود إلى أكبر مجرّة، ومن الجماد الناطق بآيات القدرة والإبداع إلى الإنسان العاقل، هل يعقل أو يتصوّر أن يهمل هؤلاء البشر من نعمة أعظم، ومنّة أجلّ وأكبر، وهي ما يصلح قلوبهم، ويحقّق لهم غذاء أرواحهم وأشواقَها، ويوضّح لهم سبيل الهداية ومنهاجها، فلا يهيمون في هذه الحياة كالبهائم، ولا يعيشون عيش السوائم؟!.

إنَّها نعمة النبوّة والرسالة، نعمة إنزال الكتب وإرسال الرسل.. نعمةُ النعم في حياة الإنسان، التي تجلّ حكمة الله تعالى ورحمته عن أن يحرم منها عباده، نعمة إرسال النبيّ الأمّيّ الخاتم ﷺ، الذي يعرف هؤلاء المبعوثُ فيهم نسَبه وشرفَه، وأمانَته وصدقَه.. فما الذي يحول بينهم وبين الإيمان به، واتّباع رسالته؟.

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: ـ **اتّقُوْا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ـ وَمَا خَلْفَكُمْ ـ صَيْحَةً وَاحِدَةً ـ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ـ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ـ الأَجْدَاثِ ـ يَنسِلُونَ ـ وَامْتَازُوا ـ جِبِلاًّ ـ لَمَسَخْنَاهُمْ ـ نُعَمِّرْهُ ـ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ.**

السؤال الثاني : وضّح المعنى الإجماليّ للآيات التالية واذكر أهمّ ما يستفاد منها:

أ ـ ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

ب ـ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

ج ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

د ـ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

السؤال الثالث : كم عدد مرّاتِ النفخ في الصور، ودلّل من الآيات الكريمة على ما تقولُ.

الفصل الخامس

دلائل نبوّة ومعالم رسالة

يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

بين يدي الآيات:

ومع ما تقدّم من دلائل القدرة والحكمة على البعث والحساب، وما جَاء من عرض مشاهد من أهوال يوم القيامة ومصير المؤمنين والكافرينَ، تعودُ الآيات إلى تقرير وجوه من الأدلّة على نبوّة محمّد ﷺ، وتنفي بعض الشبهات التي أثارها المشْركون قديماً، ويثيرها أعداءُ الإسلام حديثاً، وفي كلّ زمان.. وهي وإن تكن عبثيّة هازلة، غير جادّة ولا منطقيّة، يبدو تهافُتها وعوارها، ولكنّ القرآن الكريم على طريقته في تقديم الحجّة وإقامتها، ودفع الشبهات وتعريتها، يشير

إليها ويفنّدها، كيلا يتأثّر بِها أحد من ضعاف النفوس، أو مرضى القلُوب، وتلك قضيّة محوريّة في هذه السورة، ثمّ تتحدّث الآيات عن بعض نعم الله على عباده، ومننه عليهم، التي تدعوهم إلى توحيده وإخلاص العبوديّة له، ونبْذ ما يعْبد أو يدعى من دونه..

معاني الكلمات :

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ : وما جعلنَا محمّداً ﷺ قادراً على قول الشعر أو نظمه.

وَمَا يَنْبَغِي لَهُ : ولا يتَأتّى منه، ولا يسْهل عليه لو طَلبه.

إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ : تذكير وموعظة من الله تعالى لعباده.

وَقُرْآنٌ مُبِينٌ : كتاب سماويّ، مبيّن للأحكام والشرائع التي يكلّف الله بها عباده.

مَنْ كَانَ حَيًّا : حيّ القلب مستنير البصيرة، يعقل الحقّ ويستجيب له.

وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ : يجب العَذاب ويثبت.

أنعَاماً: هيَ الإبل والبقر والغنم، وخصّها بالذكر لما فيها من بديع الفطرة وعظيم المنافع.

وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ : صيّرناها مذلّلة منقَادة لهم.

ولهُم فِيها مَنافعُ: من أصوافها وأوبارها وأشعارها، فضلاً عن لُحومها وألبانها.

وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ: وَهُمْ لآلهتهمْ من الأصنام جُنودٌ يذودون عنهم، ثمّ هم مُحْضَرُونَ في النار معهم.

المعنى الإجمالي للآيات:

وما علّمْنا محمّداً ﷺ قولَ الشعر، وما ينبغي له أن يكون شاعراً، إذ إنّ القرآن الكريم الذي جاء به، وقد تضمّن جميع المنافع الدينيّة والدنيويّة، يباين الشعر من كلّ وجه: أمّا لفظاً فلأنّه بعيدٌ عن وزن الشعر وتقفيته، وهذا ما لا يُماري به مَنْ له أدنى مسكة.. وأمّا معنىً فلأنّ الشعر انفعال بشريّ، تشوبه شوائب الأهواء والنزوات، وكثيراً ما يجمح بصاحبه عن الحقّ والهدى، وأكثره تخيّلاتٌ وعواطفُ ومبالغاتٌ، مرغّبةٌ أو مُنفّرةٌ، وشيءٌ من الهزل، وضربٌ من القول بغير هَدف إلى الحقّ أو قصد.. وهو مقرّ الأكاذيب، ولذا قيل: أعذبه أكذبه..

ومن هذا القبيل ما أثر من قول الإمام الشافعيّ رحمه الله:

ولولا الشعرُ بالعلماءِ يُزري ... لكنتُ اليوم أشعرَ مِن لبيدِ

والعرب الذين تفنّنوا في قول الشعر وتفَاخروا، وتباروْا في ذلك وتنافسوا، هم أعلَم الناس ببراءة القرآن والرسول ﷺ عن ذلك لو أنصفوا..

وأمّا هذا القرآن الذي جاء به محمد ﷺ فهو وحيٌ منزّل من السماء، وذكر لأولي الألباب، وهو قرآن مبين في أحكامه وحكمه ومواعظه ؛ أنزله الله لينذر من كان حيَّ القلب، مستنير البصيرة، ينتفع بالموعظة والذكرى، ويحقّ العذاب على الكافرين بالله ؛ فتقوم عليهم حجة الله البالغة بالقرآن، فهو كلّه حكمٌ وعقائد وشرائع.. لا مدخل فيه إلى شيء من العبث أو الهزل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾ [الطارق].

فإذا انتفت الريبة بهذا القرآن، وبمن جاء به من عند الله، فلم يبق للكافرين المكذّبين إلاّ العناد والمكابرة، وهو ما يوجب عليهم العذاب العاجل بجهاد المؤمنين لهم بأنواع الجهاد، والعقاب الأخرويّ بعذاب الجحيم..

ومن أدلة وجود الله ووحدانيته: خلق الإنسان والحيوان والنبات، فقد خلق الله سبحانه كل ذلك، وأبدعه من غير واسطة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على الناس: تذليل الأنعام لهم، حتّى إنّ الصبيّ الصغير يقود الجمل العظيم، ويضربه ويوجهه كيف يشاء، وهو له طائع.

ومن نعمته: تسخيرها لمنافعهم في الركوب، والأكل من لحمها، والشرب من حليبها وألبانها، وصنع الجبن والسمن منها، وكلّ ذلك ممَّا يوجب شكر الخالق المنعم على نعمه، بعبادته وطاعته، وإخلاص العمل له.

وعلى الرغم من وجود الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيّته، فقد اتخذ الكفار من دون الله آلهة، لا قدرة لها على فعل، طمعاً في نصرتها، وأملاً في مساعدتها لهم إن وقعوا في شدّة، أو نزل بهم عذاب.

ثمّ سلّى الله عز وجل نبيّه محمداً ﷺ فقال له: لا يحزنك قولهم: ساحر، شاعر، روي أن قائل ذلك عقبة بن أبي معيط، فكذّبهم الله تعالى، ونفى ذلك عن رسوله ﷺ، وبيّن سبحانه أنّه مطّلع عليم بما يسرّ الكافرون، أو يظهرون من القول والعمل، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

الدروس والعبر:

١ ـ ليس القرآن شعراً، وليس محمد ﷺ شاعراً، فلا يقول الشعر ولا يزنه، وكان ﷺ إذا حاول التمثّل ببيت من الشعر كُسِرَ وزنه على لسانه، وذلك من أعلام نبوته ﷺ.

٢ ـ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

وَجهٌ في إعجاز هذه الآية لم أجد من نبّه إليه:

تنزّه هذه الآية القرآن الكريم عن أنْ يكون نوعاً من الشعر، كما تسمو بالنبيّ ﷺ أن يقول الشعر أو يستطيعه.. وإذا علمنا أنّ العرب كانوا يقولون الشعر، ويفاخرون به، وينتقصون من لا يستطيع قوله، ويعدّون قرض الشعر قصارى ما يتشوّف إليه الرجال، ويتبارون به في

المجالس والمنتديات، وكانوا يعقدون لذلك اللقاءات الدوريّة والحوليّة، وعندما نزل القرآن على محمّد بن عبد الله ﷺ بهذا البيانِ المعجز، وسمعه العرب، وتحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، ونزلت عليه هذه الآيات، وجدوا ما كانوا يفاخرون به، ويعدّونه غايةً عليا في الحياة.. وجدوه غايةً دنيا.. يأباها الله لنبيّه ﷺ، ويسمو به عنها في خطابه وبيانه، كما يُجَلّ عنها كلام ربّه المنزّل.. وبعدما أراهم القرآن ذلك كذلك، وعندما تذوّق بلغاؤهم فصاحة القرآن، ولذّة بيانه، وسَمَتْ عقولهم ونفوسهم إلى عليائِه. شهد بلغاؤهم وفصحاؤهم بذلك، كما قال الوليد بن المغيرة: ".. والله ما هو بشعر، ولا بسحر ولا كهانة.. إنّ لقوله لحَلاوة، وإنّ عليه لطَلاوة، وإنّ أعلاه لَمُثْمر، وإنّ أسفله لَمُغْدق، وإنّه ليعلو، ولا يُعلى عليه.."، فأبت عليهم عقولهم أن يعودوا إلى التنافس في قول الشعر، أو التباهي بقوافيه وقريضه.. كما يأبى العاقل الراشد، الذي سمت همّته، وزكت أفعاله أن يعود إلى ما يشبه عبث الطفولة، أو نزوات الشباب..

أفليس في ذلك دليل على أنّ القرآن من عند الله تعالى.؟! وأنّ دعوة محمّد ﷺ، وما أنزل عليه من القرآن، ليس ذلك نوعاً من الأدب الذي عرفته البشريّة بأيّ نوْع من أنْواعه.. وإنما هو أدب أسمى من كلّ أدب وأرفع.. وبيان أجلى من كلّ بيان وأمنع.. فهو كلام الله تجلّى بأجمل حلية، وهو دعوة الحقّ كسيت أبهى حلّة..

٣ ـ إنَّ إصابة النبي ﷺ الوزن أحياناً لا يوجب أنه يعلم الشعر، فقد يأتي مثل ذلك في آيات القرآن، وليس ذلك شعراً ولا في معناه،

كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر، ولم يقصد به إلى الشعر فليس بشعر، ولو كان شعراً لكان كل من نطق من العامة بموزون شاعراً.

٤ ـ روى ابن القاسم عن مالك رحمه الله أنه سأل عن إنشاد الشعر فقال: لا تكثرن منه، فمن عيبه أن الله يقول: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

٥ ـ إنّ القرآن الذي يتلوه النبي ﷺ على الناس أنزله الله تعالى حجّة على العالمين، فيه الذكر والمواعظ، والآداب والأخلاق، والحكم والأحكام، والتشريع المحقق لسعادة البشر.

اتّصال الآيات بما بعدها:

وإذا كانت أحوال الكافرين لا تَخْفى على الله تعالى، سرّهم وعلانيتهم في ذلك سواء، فإنّ ما هم فيه من نعم يمتّعون بها ويتقلّبون، إنّما يُستَدرَجُون، ولن تغنيَ عنهم من الله شيئاً، ولن تدفع عنهم عذاب الله إذا أحاط بهم، فمهما عاندوا الحقّ، وكذّبوا الرسل فهم تحت قهر الله وقدرته، ولن يفلتوا من المسئوليّة والحساب.

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ـ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ـ مَنْ كَانَ حَيًّا ـ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ـ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ ـ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ.**

السؤال الثاني : وضح المعنى الإجمالي للآيات:: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

السؤال الثالث : عدّد أنواع النعم التي امتنّ الله بها علينا في هذه الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

السؤال الرابع : اذكر ما يستفاد من قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

* * * * *

الفصل السادس

حجج بيّنات في وجوه المكذّبين

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

بين يدي الآيات:

إنّ كبر المتكبّرين المعاندين لا يقف عند حدّ، وصلفهم وجدالهم بالباطل يتأبّى على التهذيب والترويض، ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم يتابع مزاعمهم ليدحضها، ويعرض شبهاتهم وأقاويلهم ليفنّدها، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ..﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

وذاك منهج قرآنيّ مطّرد مع جميع أصحاب الملل والنحل الباطلة أو المحرّفة، وفيه تعليم للدعاة إلى الله تعالى أن يقارعوا ترّهات الباطل بصواعق الحقّ، حتّى تقوم الحجّة، ويستبين السبيل.

ـ أسباب نزول الآيات :

جاء في أسباب النزول أنّ أبيّ بن خلف لعنه الله جاء إلى النبيّ ﷺ، وفي يده عظم رميم، وهو يفتّه في الهواء، ويقول: يا محمّد ! أتزعم أنّ الله يبعث هذا.؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم ! يميتك الله تعالى، ثمّ يبعثك، ثمّ يحشرك إلى النار "، ثمّ نزلت هذه الآيات من آخر سورة: «يس»: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ إلى آخر السورة[1].

معاني الكلمات :

نُطْفَةٍ : ذَرّة من المنيّ، وهو الماء المهين.

خَصِيمٌ : مبالغ في الخصومة، وشديد الجدال بالباطل، وإنكار البعث بعد الموت.

مُبِينٌ : مجاهر في إنكاره للحقّ، متجرّئ على ربّه.

---

(١) ـ عزاه ابن كثير في تفسيره ٥٠٨/٣ إلى مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم، وروى ابن أبي حاتم أن فاعل ذلك العاصي بن وائل.

نَسِيَ خَلْقَهُ: نسي كيف كان ابتداء خلقه.

وَهِيَ رَمِيمٌ: بالية أشدّ البلى، من رمّ يرِمّ، أي بليَ.

جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا: هو الشجر النديّ الرطب، كشجرتي المرخ والعَفَار، تخرج منهما النار، إذا احتكّ أحدهما بالآخر، وهما عودان أخضران.

بلى: هو قادر على خلق مثلهم، وهي كلمة جَواب بالإثبات، تأتي بعد كلام منفيّ.

المعنى الإجمالي للآيات:

عجباً لأمر الإنسان الجاحد لربّه ـ سواء العاص بن وائل السهمي، أو أبيّ بن خلف الجمحي «وهو الأصحّ» أو أمية بن خلف أو غيرهم ـ كيف خلقه الله من نطفةٍ ماءٍ تافهٍ حقيرٍ، ثم يخاصم ربّه، ويتطاول على خالقه، ويجادل في خصومته ويتمادى، مُبيناً في زعمه لحجته، بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً؟.

قال أبو حيان: قبّح الله تعالى إنكار الكفرة للبعث، فقرّر سبحانه أن عنصره الذي خلق منه هو ماء مهين خارج من مخرج النجاسة، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى ويقول: من يحيي الميت بعد ما رمّ، مع علمه بأصل نشأته.

لقد نسي هذا الإنسان الضعيف المخلوق أن الله أنشأه من نطفة، ثم جعله إنساناً حيّاً سويّاً، فهذا دليل حاضر من نفسه على

إمكان البعث، وقد احتجّ الله عز وجل على منكري البعث بالنشأة الأولى، فكيف ينكر الإنسان، ويقول بعد ذلك: من يحيي هذه العظام البالية؟!.

والجواب: أن النشأة الثانية مثل النشأة الأولى، فمن قدر على النشأة الأولى قدر على النشأة الثانية ولا ريب، فالله تعالى عالم بكل الأشياء، سواء في ذلك الأجسام العظام أو الذرات الصغار.

ومن أدلة وحدانيته تعالى وكمال قدرته على إحياء الموتى: ما يشاهده الناس من إخراج المحروق اليابس من العود النديّ الطريّ، فإن الشجر الأخضر من الماء، والماءُ بارد رطب ضدّ النار، وهما لا يجتمعان، فأخرج الله منه النار، فدلّ ذلك على أنّه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضدّ، وهو على كل شيء قدير، فأيّ عجب بعد ذلك من خلق العباد مرّة أخرى؟!.

إنّ الله الذي خلق السموات والأرض التي هي أعظم من خلق الناس قادر على أن يبعث الناس من قبورهم، ويحييهم مرة أخرى للحساب والجزاء، فهو سبحانه لا حدّ لقدرته، ولا يعجزه شيء.. فهُو سبحانه الخلاّقُ: الكثيرُ الخلق، والعظيم فيما خلق، وهو العليم بما خلق: بدقائق أحواله وعظيمها، وخفيّها وجليّها، لا يخفى عليه شيءٌ من أمرها، لا يغفل عن خلقه لحظة، ولا تأخذه سنة ولا نوم..

والاستدلال على بعث الناس من قبورهم، وحشرهم إلى الحساب بين يدي ربّهم بخلق السموات والأرض هو من نوع قياس الأولى، فالقرآن الكريم يقرّر، ثمّ من بعده العلم المعاصر يقرّ ويعترف أنّ خلق

السموات والأرض أعظم وأجلّ من خلق هذا الإنسان، على عظمة ما في خلقه، ودقّة ما في خلقه، وحكمة ما في خلق كلّ عضو من أعضائه، أو خليّة من خلاياه، يقول الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر].

وأمّا العلم الحديث المعاصر، باكتشافاته المتجدّدة فهو في كلّ يوم يكتشف الجديد، ويقدّم البرهان تلو البرهان على ما قرّره القرآن قبل أربعة عشر قرناً.. إنّه يقرّر أنّ " السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ خلقٌ عجيبٌ هائل.. هذه الأرض التي نعيش عليها، ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع، ثمّ لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها، ولا شيئاً من حقيقتها، ولا نعلم عنها حتّى اليوم إلاّ القليل.. هذه الأرض كلّها تابع صغير من توابع الشمس، التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها.. وهذه الشمس واحدة من مائة مليون في المجرَّة الواحدة التي تتبعها شمسنا، والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرَّات أخرى كثيرة. أو دنييات كدنيانا القريبة، عدّ الفلكيون حتّى اليوم منها مائة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة، وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد.

وبين مجرّتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سنة ضوئية «والسنة الضوئية تقدّر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال!».. وهناك كتل ضخمة من السدم الذي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس، وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التي لا يحصيها العدّ. لكلّ منها فَلَكٌ تجري فيه، ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس.. وكلها تجري وتدور في دقّة وفي دأب، لا تتوقف لحظة ولا تضطرب. وإلاّ تحطم الكون المنظور، واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع.. هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد، كأنها ذرات صغيرة. لا نحاول تصويره ولا تصوّره. فذلك شيء يدير الرءوس!" (١).

وبعد ؛ فهل لمن يحمل في رأسه عقلاً يحترمُه أن يتشكّك في قدرة مَن خلق السموات والأرض أن يخلق هذا الإنسان ويبعثه بعد الموت.؟! فإن كان في الدنيا من يكون كذلك، فحقّاً: ﴿..فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجّ].

الدروس والعبر :

١ ـ لا حجّة للجاحد في إنكار البعث بعد الموت، والحشر والجزاء إلاّ العنادُ والمكابرة، أو ضعفُ العقلِ وقلّةُ التفكير.

٢ ـ حُجَجُ الحقّ كثيرةٌ ظاهرةٌ، مبثوثةٌ في كلّ شيء من هذا الوجود، وما على العاقل إلاّ أن يعمل فكره، ويتجرّد عن الأهواء التي تصدّ عن اتّباع الحقّ، ليرى أمامه شواهد الحقّ أكثر من أن تحصى أو تعدّ..

---

(١) ـ انظر في ظلال القرآن ٥/٢٩٧٨.

٣ ـ مع أنّ من صفات الكافرين العناد للحقّ، والتكبُّر عن قبوله، والجدل وكثرة المماراة، فإنّ على الدعاة إلى الله تعالى إقامة الحجّة عليهم، ببيان الحقّ والتدليل على حقائقه، بأنواع الحجج والبراهين.. ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ..﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

اتّصال الآيات بما بعدها :

تتّصل هذه الآيات بما بعدها اتّصالاً وثيقاً، إذ تأتي الآيتان الأخيرتان في السورة بمثابة التقرير العامّ لكلّ ما في السورة، والحكم العامّ على ما سبق بيانه، من قدرة الله التي لا يعجزها شيء، ولا تقف عند حدّ..

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: ــ **نُطْفَةٍ ـ خَصِيمٌ ـ نَسِيَ خَلْقَهُ ـ وَهِيَ رَمِيمٌ ـ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا**.

السؤال الثاني : وضّح المعنى الإجماليّ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

السؤال الثالث : اذكر أهم ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

* * * * *

الخاتمة

الملك والقدرة أعظم دلائل التوحيد

يقولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يس.

بين يدي الآيات :

تعدُّ هاتان الآيتان خاتمةَ البيان، وفصلَ المقال للسورة كلّها، تُلخّص فصولَها، وتجملُ حقائقَها، فهِي تأتي كالنتيجة لما سبقها، وكلّ ما جاء في السورة كالمقدّمات لها..

معاني الكلمات :

كُنْ، فَيَكُونُ : أي إنّما شأنه إذا تعلّقت إرادته بشيء من الأشياء، أن يقول له: كن، فإذا هو كائن، من غير توقّف على شيء آخر، وهي أخصر كلمة تعبّر عن إرادة الخلق والوجود.

فَسُبْحَانَ : تنزيهاً لله عمّا ضرب الكافر من المثل كفراً وعناداً،

وعمّا نسب إلى الله زوراً وبهتاناً.

بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ: له الملك التامّ لكلّ شيء، وهو المتصرّف فيه وحده، والمَلَكُوتُ مبالغة في المِلك.

المعنى الإجمالي للنصّ:

إنّ الله تعالى إذا أراد خلق شيء لا يحتاج إلى جهد ومعالجة، وإنما أمره نافذ، وإرادته لا يُعجزها شيء، فتنزّه الله تعالى عمّا لا يليق به سبحانه، مالك الملك، لا يندُّ عن ملكه وقهره شيء، بيده مفاتيح كل شيء، ومردُّ الناس كلّهم إليه، ومصيرهم بعد مماتهم للبعث والحشر، ليحاسب كلّ امرئ على ما قدم، ويجازى بما عمل من خير أو شرّ.

الدروس والعبر:

١ ـ قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

٢ ـ إنّ تسبيح الله تعالى وتنزيهه هو روح التوحيد لله تعالى والإقرار بأسمائه وصفاته.

* * * * *

الأسئلة والمناقشة :

السؤال الأوّل : وضّح معاني الكلمات التالية: **كُنْ، فَيَكُونُ - فَسُبْحَانَ - بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**.

السؤال الثاني : وضّح المعنى الإجماليّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾.

السؤال الثالث : ما صلة ختام هذه السورة بمقدّمتها وموضوعاتها؟.

* * * * *

وإلى هنا كان الفراغ من تفسير سورة: «يس».

هذا والله تعالى أعلم، ونستغفرُ الله تعالى ممّا أخطأنا أوْ زلّ به القلمُ، وصلّى اللهُ على سيّدنا محمّد، النبيّ الأمّيّ الطاهر الزكيّ، وعلى آله وصحبه وسلّم، والحمد لله ربّ العالمين.

تمّ الفراغ من تحرير تفسير هذه السورة المباركة صباح السبت، في التاسع من ربيع الآخر لعام /١٤٢٢/ من هجرة المصطفى ﷺ.

* * * * *

المحتويات

الموضوع	الصفحة
خطة الدراسة	٥
المقدمة	٧
تمهيد: وفيه ثلاثة مباحث بين يدي السورة	٩
ـ المبحث الأوّل: التعريف بسورة: «يس» وما ورد في فضائلها	٩
ـ المبحث الثاني: السرُّ في تسمية سورة: «يس» قلبَ القرآن الكريم	١٥
ـ المبحث الثالث: موضوع السورة العامّ وأفكارها الرئيسة	١٩
ـ الفصل الأوّل: مقدّمة السورة: حقائق الإيمان في مواجهة عتوّ الطغيان	٢٥
ـ الفصل الثاني: مثل من حال الغابرين	٣٧
ـ الفصل الثالث: من آيات القدرة والإبداع	٥١
ـ الفصل الرابع: حوار مع الكافرين والمصير المنتظر	٦٣
ـ الفصل الخامس: دلائل نبوّة ومعالم رسالة	٧٦
ـ الفصل السادس: حجج بيّنات في وجوه المكذّبين	٨٤
ـ الخاتمة: الملك والقدرة أعظم دلائل التوحيد	٩٢
ـ الفهرس	٩٦

* * * * *